تفسير سورة الملك

بقلم الشيخ حسين العايش البراك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) إلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وإليه النُّشُورُ (15) أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي

السّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فإذا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذّبَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنّ إلا الرّحْمَنُ إِنّهُ بِكُلّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمّنْ هَذَا الّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إلا فِي غُرُورٍ (20) أَمّنْ هَذَا الّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجّوا فِي عُتُوّ وَنُفُورٍ (21) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وإليه تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ وَإِنّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدّعُونَ (27) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرّحْمَنُ آمَنّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ(30)

صدق الله العلي العظيم

مدخل :

إن من أهم المرتكزات التي يتكئ عليها الإنسان هي تشكيل المفاهيم السليمة والصحيحة في ذهنه وفي عالم وجوده ، فإذا كانت صحيحة استقامت بها شخصيته والعكس صحيح أيضا ، فالمفاهيم إذا كانت غير سليمة وغير صحيحة فلن تكون شخصيته مستقيمة ولن يستطيع أن يسير في الصراط السوي .

قوله تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

تبارك في الأصل مأخوذ من البركة ، وهي في اللغة بمعنى الشيء الدائم والمستمر والذي يعطي خيرًا كثيراً ، ولذا نسمي مجمع الماء بركة . أي أنه يستفاد منها دائماً حيث يجتمع الماء في مكان واحد فهي مجمع للخير الكثير الذي يترتب عليه سَقي الزرع وجني الثمار ، ولهذا فإن البِركة أُشرِبَ في معناها البَركة . والله تعالى يمدح نفسه ويثني على ذاته بقوله {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} ، أي كثُر خيره ودام برّه ووسَع عطاؤه ، وبعد ثنائه على نفسه يذكر العلة والسبب الذي من أجله مدح ذاته ، لكونه {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} لأنَّ الملك بيده ، وهو قادر على إنفاذ ما يشاء .

معاني الملك :

للمُلك ثلاث معانٍ :

الأول الملك الحقيقي : يعبر عن المُلك في الاصطلاح الفلسفي والعلمي بمقولة الجِدة وهو إحاطة شيء بشيء ، ويشبه ذلك القلنسوة التي نلبسها على الرأس فتكون محيطة به ، وكذلك الخاتم الذي يحيط بالأصبع ، والسوار الذي يحيط بالمعصم وهلمّ جرّا . فإحاطة شيء بشيء آخر نطلق عليه مُلك أو جِدة أي هيمنة شيء على شيء ، فإذا كان هناك شيء يتصرف فيه وهو تحت الهيمنة بشكل كامل من دون احتياج إلى جهة أخرى في التصرف فيه فتلك ملكية حقيقية ، كملكية ذات الإنسان لجوارحه ، فهو متسلط عليها ويتصرف بها كيف شاء.

الثاني الملكية الاعتبارية : وهي ما تحصل بالمعاملات التي نقوم بها من البيع والشراء وغيرهما، فعندما يشتري شخص بيتًا يملكه بالملكية الاعتبارية ، لأنه متسلطٌ عليه ومهيمنٌ على ما اشتراه بالهيمنة الاعتبارية ، ذلك أن العقلاء لديهم قانون هو (أن النظام لا يستمر إلا من خلال وجود قانون ينظم حياة الإنسان في علاقته وارتباطه بما يريد أن يقتنيه ويكون من مختصاته التي لا يشاركه فيها غيره) ، وهذا القانون يوجب أن يكون الشخص ما

امتلكه تحت اعتباره وتحت سلطنته وهمينته ، ويتصرف فيه بنحو كامل ، وكذلك الحال بالنسبة للأمور الأخرى التي يمتلكها غيره فهم يتصرفون فيها بشكل مطلق ، ويعم ذلك المجتمع بأسره ، وهو ما يؤدي إلى حصول مبادلات مالية تسمى بالمعاوضات ، نتيجتها تحصيل الملكية . وقد يتوهم البعض بأن هذا النحو من الملكية حقيقي ، فيعتبر أن ملكيته لبيته على نحو ملكيته لذاته غير أن ذلك التوهم خطأ ، ويتبين خطؤه عندما يغتصب شخص بيته فسوف يفقد التسلط والهيمنة عليه ، مما يدلل على أن ملكيته له ليست على نحو الحقيقة ، وإلا لما استطاع أحد أن يسلبها منه .

الثالث الملكية الحقيقية : وهي أدق من الملكيتين السابقتين ، لأن أصلها هو الثبوت والدوام كملكية الله تعالى لخلقه ، فهو يمتلكها بالحق الثابت الذي لا يزول ولا يتغير ولا يطرأ عليه ما يفنيه . بينما الملكية الحقيقية ترتبط بوجود الإنسان الفيزيائي الذي يفنى ويتلاشى ، حيث أنه إذا جرى عليه حادث قد يفقد عضواً من أعضائه فليس له تمام الهيمنة بنحو دائم لجوارحه ، لكنه يمتلكها بنحو أوثق وأشد من الملكية الاعتبارية ومع ذلك سميناها بالملكية الحقيقية لاختلافها عن الملكية الحقية ذلك أن

الحقية لا تزول مطلقاً ، فالله تعالى هو الذي أبدع الخلق وأوجده وإليه يرجع (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إلا إلى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ) (53 سورة الشورى) ، (وَأَنَّ إلى رَبِّكَ الْمُنتَهَى) (42 سورة النجم) ، أي أن جميع الأمور نهايتها إلى الله تعالى . فالملكية الحقية لله تعالى وحده ، ولهذا قالت الآية (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)، أي أن عالم الوجود تحت قدرته . والألف واللام الداخلة على الملك هي للجنس ، أي مطلق الملك وحقيقته بيد الله وله . وأما الإنسان فمهما امتد نفوذه وقوى سلطانه وهيمن بقدرته فلن تكون له ملكية كملكية الله تعالى ، بل إن القدرات التي يتمتع بها والعلم الذي يستفيد منه ، ليس مالكاً له ، وإنما هي مِنحة ومِنة من الله تعالى ، ولهذا نجد أن العالِم يفقد علمه والموهوب يفقد موهبته والمالك بالاعتبار يفقد ما يملكه . ونسمع كثيراً في الأحداث السياسية المتلاحقة أن مَلِكاً حكم وهيمن على مملكة مترامية الأطراف ثم جاء شخص آخر مكانه بحدوث انقلاب أو بموت ، فكل شيء يزول إلا الله تعالى وما ارتبط به وأراد له البقاء فإنه باقٍ بلا زوال .

اليد في اللغة هي الجارحة المعروفة ، وتطلق أيضاً ويقصد بها القوة والقدرة والسلطان ، والله تعالى يريد أن يبين أن جميع الملك تحت قدرته وسلطانه تعالى ، فهو محيط بعالم الوجود ومهيمن

على كل شـــيء ، والعالَم بأســـره لا يقوم إلا به تعالى ، فهو الذي أعطاه الدوام والاســـــــــتمرار وأبقاه على حالته الوجودية ، قال الفلاســـفة : أنه أوجده بالجعل البســـيط وليس بالجعل التأليفي وهو معنىً دقيق لا نريد طرحه في بحثنا التفسيري هذا وإنما نريد التأكيد على أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن الملك يريد به كل عوالم الوجود الممكن بما يشـــمل العوالم الملكوتية . وهنا قوله تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ، يشـــرحه قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، فالضمير (هو) عبر عنه العلماء والعرفاء بالاسم الجامع وقد جاء الضمير في دعاء صلاة الصديقة الزهراء عليها السلام : (يا من لا يعلم كيف هو وحيث هو وقدرته إلا هو) [1]، فهذا الضـــمير يرجع إلى الذات المقدســـة المســـتجمعة لجميع صـــفات الجمال والمنزهة عن جميع صفات الجلال ، وهو من الأذكار الهامة لمن أراد أن يصل إلى عمق المعارف ، إذا إن المواظبة على الذكر تُجلي للإنسان الحقائق بنحو واضح روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه (اللهم أرنا الحقايق كما هي) [2]، فالإنســـان كي يرى الأشـــياء كما هي يحتاج إلى العمل بالأســـباب التي توصـــله إلى ذلك ، ومن جملتها النزاهة والطهارة الذاتية والقيام ببعض الأعمال التي من أهمها

1 بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٨٦ - الصفحة ٣١٩

2 عوالي اللئالي - ابن أبي جمهور الأحسائي - ج ٤ - الصفحة ١٣٢

المواظبة على هذا الذكر - هو- لأنه يرجع إلى الذات المقدسة ، التي هي مصدر كل خير وجودي ، وإليها ترجع الخيرات بأجمعها .

فالله تعالى بيده الملك والقدرة على كل شيء عظُم أو صغُر وقدرته تعالى محيطة بكل شيء ومهيمنة عليه بنحو مطلق . والإنسان وإن تمتع بقدرة لكنها ليست كقدرته تعالى ، فصحة الإنسان وقوته وماله وسلطانه هي مظاهر للقدرة الإلهية وجميعها قد تزول في لمح البصر أو أقل من ذلك بالموت أو العجز أو المرض أو غير ذلك ، ولا يستطيع التصرف في أي شيء حتى من لديه السلطان والملك فإن قدرته غير مستقرة وقابلة للزوال ، والله تعالى يختبره بمنحه للقوة ليرى كيف يتصرف بها ، فقد يجعلها في المعصية او الطاعة ، وهذا اختبار دقيق وحساس يكشف حقيقة الإيمان ومدى قوة الالتزام الديني لدى الإنسان ، بينما الله تعالى يتصرف بكل الأشياء حتى الزمن فهو مالك له ، ولذلك أطلقت الآية (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، فقدرته تعالى لا يحدها شيء في الوجود .

الصفات الإلهية في الآية

من المباحث الهامة في الآية البحث في الصفات الإلهية ، فالقدرة في قوله تعالى(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) صفة من صفات

الذات المقدسة ، وفي الابحاث العقدية توجد تقسيمات للصفات الإلهية من جملتها ، تقسيمها إلى صفات ذات وصفات فعل وهناك تقسيم آخر لها إلى صفات جلال وصفات جمال وقوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يشتمل على أقسام الصفات الإلهية ، فالقسمان الأولان يشيران إلى صفتي الذات والفعل ، فصفة الفعل تظهر في الآية من قوله (بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ، لأن الملك هو فعل الله تعالى ، والتعبير بأنه تعالى مالك الملك لكونه الموجد له ، وهو غير ذاته ، وأما صفة الذات فتظهر في الآية من قوله (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فهو تعالى قادر بذاته على كل مقدور ، ولا يشذ عن قدرته مقدور وتعبير الآية يشمل كل الأشياء ، لكننا قد نجد بعض الأشياء لا تستوعبها القدرة وقد يقال إن التعبير غير دقيق لأنه لا ينطبق على جمع النقيضين الوجود والعدم ، وإذا قلنا إن الله تعالى لا يجمع بينهما ، فهل معنى ذلك أنه تعالى غير قادر على الجمع بينهما ؟

الجواب بالنفي ، فإن الله قادر على أن يجمع بين النقيضين لكن ذاتيهما غير قابلتين على استيعاب القدرة الإلهية أي لا استعداد لهما لتلقي الفيض . وتشير أيضا إلى صفات الجلال في قوله تعالى (تَبَارَكَ) أي أنه تعالى يمجّد ذاته ، ويصفها بالكمال ، فهو نوع من التنزيه باللازم وعندما يسبّح الحق تعالى (سبحان

الله) فهو تنزيه مباشـــر ينفي النقص من دون واســـطة . إذا اللازم للمدح هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق بذاته المقدســة من صـفات ، كوصــفه تعالى بكونه محدودًا في مكان – السـماء - أو في زمان أو كونه مركباً أو جســـماً ، فهذه صـــفات نقص . وعندما يطلق (تبارك) فسـوف يفهم معنى (بيده) لأن اليد لن تكون الجارحة ، بل سوف تُدلل على قدرة الله تعالى التي يفسرها قوله (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

القدرة في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

بعد أن ذكرنا أن الذات المقدســة قادرة على كل شـــيء ، وأن القدرة والذات شـــيء واحد ، كما جاء في معارفنا المأخوذة عن أهل البيت عليهم السلام ، خصوصاً ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال في نهج البلاغة (أَوّلُ الدّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التّصـــْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التّصــــْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلّ صِفَة أَنّها غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلّ مَوْصُوف أَنّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنّاهُ ، وَمَنْ ثَنّاهُ فَقَد جَزّأَهُ، وَمَنْ جَزّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، [وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ،] وَمَنْ أشَارَ إليه فَقَدْ حَدّهُ، وَمَنْ حَدّهُ فَقَدْ عَدّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ» فَقَدْ ضَمّنَهُ، وَمَنْ قَالَ:

«عَلاَمَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ)) [1] فقولنا (إنّ الله على كل شيء قدير) ، اي أن قدرته هي ذاته ، كما أن علمه هو ذاته ، وذاته هي حياته ، وحياته وذاته هما علمه وهما قدرته ، والتعدد في عالم المفاهيم . وأما في المصداق والواقع فإن الله تعالى علم وقدرة وهو حياة ونور ، والذات لا تعدد فيها كما أكد على ذلك أهل البيت عليهم السلام في تبيانهم لحقيقة الصفات الإلهية .

قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

هنا تبيان لبعض مجالات مواضع القدرة ، ومنها خلق الموت والحياة ، وكي يتضح ذلك لابد من التعرف على الموت والحياة ، ما هو الموت ؟ وما هي الحياة ؟ إننا نعرف أن الحياة والموت ضدان ، فالحياة عرفها العلماء بأنها كيفية خاصة في الأحياء تترتب عليها أمور كالحس والحركة والتصرف ، فالأحياء تحس وتتحرك ولا يختص ذلك بالأحياء العاقلة أو ما أشبهها ، فعالم الحيوان فيه حس وحركة ، أما عالم الإنسان ففيه بالإضافة إلى الحس والحركة إدراك الكليات والتصرف على ضوئها بإرادته . وضد تلك الحياة هو ما افتقد الحس والحركة وما لا إرادة له

1 نهج البلاغة/خطبة يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض، وخلق آدم عليه الصلاة والسلام

كعالم الجماد ، فعندما نطلق على شي أنه مات أي أنه بطل حسه وزالت حركته ولا يستطيع أن يتصرف .

وقد أفصح القرآن الكريم عن أنهما خلقان تعلقت بهما القدرة الإلهية مع أنهما ضدان ، وزوال أحدهما يثبت الآخر ، فالضدان هما الوجودان المتعاقبان على موضوع واحد، ولا يتصور اجتماعهما فيه، ولا يتوقف تعقل أحدهما على تعقل الآخر كالسواد والبياض فهما يتعاقبان على شيء إلا أنهما يرتفعان عنه فيكون لا أسود ولا أبيض بل أخضر ، بخلاف النقيضين فإنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان عن الشيء ، ونحن لا نريد أن نلج هذا البحث غير أننا استعرضناه ليتضح من خلاله أن الأشياء تُعرف بأضدادها ، فيُعرف الحي بأنه مايتصف بمجموعة من الخصائص وعندما تزول تلك الخصائص يحدث الموت .

وقد عبّر القران الكريم بأن الله خلق الموت فهل المراد به أنه خلق أسبابه ؟ ذلك أن بعض العلماء قال إنّ الموت هو عدم الحياة وإذا كان كذلك فكيف صح تعلق الخلق به ، والخلق لا يتعلق بالعدم ، وعليه فيكون معنى (خلق الموت) أنه تعالى خلق أسبابه وخلق الحياة لأنه أوجدها ، وقال علماء آخرون أن كل ما نشاهده في عالم الطبيعة من تغيرات وتبدل للأشياء من طور إلى طور آخر ومن خلق بعد خلق تترتب عليه مجموعة من الخصائص ، بعضها

في عالم المادة وبعضها الآخر في عالم أرقى من عالم المادة ، وعندما نقول إنَّ الله خلق الإنسان أو خلق الحيوان فذلك بمعنى أوجده فصار يحس ويتحرك وأصبح وجوداً تترتب عليه مجموعة من الخصائص في عالم المادة ، ولكن عندما نقول مات فلان فسوف تترتب عليه خصائص في عالم أرقى من عالم المادة وليس بمعنى بطلان وجوده ، نعم قد يبدو بالنظر البسيط أنه بطلان للوجود ولكنه نشأة أخرى بعد نشأة ، بمعنى أنه ينتقل من حال إلى حال وليس بطلاناً لوجوده لأن بطلان الوجود عدمٌ ولا يتعلق إبداعه وإيجاده تعالى بالعدم وإنما يتعلق بالوجود .

والنشاة الأخرى تترتب عليها فوائد لمن سار على الصراط المستقيم أفضل مما هو عليه بوجوده المادي وأيضا تترتب عليها مساوئ لمن خالف وليس هناك بطلان أبداً ، وقد بيّن الإمام العسكري عليه السلام ذلك فيما روي عنه : دخل علي بن محمد عليهما السلام على مريض من أصحابه وهو يبكي ويجزع من الموت ، فقال له: يا عبد الله تخاف من الموت لأنك لا تعرفه ، أرأيتك إذا اتسخت وتقذرت وتأذيت من كثرة القذر والوسخ عليك وأصابك قروح وجرب وعلمت أن الغسل في حمام يزيل ذلك كله ، أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك أو ما تكره أن لا تدخله فيبقى ذلك عليك؟ قال: بلى يا ابن رسول الله، قال: فذاك الموت هو ذلك

الحمام ، وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك من سيئاتك ، فإذا أنت وردت عليه وجاوزته فقد نجوت من كل غم وهم وأذى ، ووصلت إلى كل سرور وفرح ، فسكن الرجل واستسلم ونشط وغمض عين نفسه ومضى لسبيله)) [1].

قوله تعالى ((الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ))

إن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً فهو تعالى ينفي عن نفسه العبث وإن كنا لا نفهم أسرار الوجود لكنه في منتهى الحقانية ، وتترتب عليه أمور لا تحيط بها العقول ، ولهذا جاء الاستفهام الاستنكاري في قوله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ) أي إن وجودكم طبق موازين دقيقة لا تحيط به عقولكم في عالم المادة وإذا كُشف لكم الغطاء استوعبتم حقائق غاية في الدقة ، وأيضا هناك فوائد أخرى تترتب على خلق الحياة والموت منها أن يمر الإنسان بسنة الابتلاء ليتبين أن الشخص يعمل على طِبق الموازين الشرعية أم لا ؟ ويترتب على ذلك التمايز بين الناس قال تعالى (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) إن قانون الابتلاء من الصعوبة بمكان ، حيث يُبتلى الإنسان في جاهه وفي علمه وفي ماله بل في كل شأن من شؤون حياته ، فتمر عليه دورة

1 ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٤ - الصفحة ٢٩٦٠

من الابتلاءات ليخرج بعدها رابحاً أم خاسراً . والنجاح له درجات ، وكذلك الخسران له دركات ، والإنسان قد يقيد نفسه في عالم الابتعاد عن الله تعالى والقيم الذي عُبّر عنه بالإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى ، خلافاً لمن سمى وارتقى في عالم القيم فتاق إلى لقاء ربه لعلمه بما يترتب على ذلك من فضل . روي عن علي عليه السلام (وَلَوْلا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إلى الثّوَابِ وَ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ)[1] وقد روي نفس المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [2]، لأنَّ وجوده مؤقت بأجل وإلا لما استطاع أن يبقى ذلك الوجود المعنوي الشفاف والقوي في جسده .

قوله تعالى (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

هناك طائفة من الروايات تفسر المراد من الأحسن بالأصوب في العمل وتفسر الصوابية في العمل بأنها الخشية من الله والنية الصادقة ، وهنا أمران :

الأول إنّ الآية تؤكد على الكيف في العمل بمعنى أن المدار عندنا ليس الكم وإنما المراد الكيف ، ذلك إن كثيراً من

1 خطبة المتقين في نهج البلاغة

2 ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٤ - الصفحة ٣٦٩٩

الناس يغرهم الكم ولا يلتفتون إلى الكيف الذي يرتبط بتخليص النية في العمل ، وإن إخلاص النية في العمل أعظم وأشد من العمل ، فقد يأتي بعض الناس بأعمال كثيرة لكنهم يأتون بها لغاية غير الله فقد يصلي بعضهم أو يصوم أو يحج أو يجاهد لغير الله تعالى أو أنه يشـــرك مع الله غيره . ويحدد الحق تعالى بأن الهدف من خلق الموت والحياة أن يبتلى الإنســان ليمتاز الأحســن عملاً ، فأفضــل الناس عملاً هو من أخلص لله تعالى ، وتلك معادلة صـــعبة جداً ولذلك تجد أن بعض الناس قد يأتي بصــدقة قليلة لكنها مقبولة عند الله أو بصـــلاة نافلة ركعتين فتكون مقبولة عند الله تعالى ، وهناك قصــص كثيرة توضــح حقيقة ذلك ومن أبلغها ماجاء في آي الذكر الحكيم قال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا) وقد نزلت الآية بسبب الإخلاص ، ذلك إن كثيراً من الناس يطعمون الطعام ويفعلون الخير ولهم جزاء من عند الله لكنه يختلف لأن إخلاص النية والتركيز على الكيف هو المناط والملاك لإيصــال العبد إلى درجات العُلى ، إن العمل مركبة توصل إلى الله وبقدر ما يخلص العبد فيه يصل إلى الله وكذلك بقدر ما يشــوبه من نوايا يبعد عن الله تعالى ، إن العمل المقبول هو العمل الخالص ولذلك أمرنا الله بعبادته مخلصـــين له الدين ، والإخلاص في العمل صعب مستصعب لكن الله تعالى يعلمنا طريقاً

سـهلاً يظهر من قوله تعالى (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) أي إن الطريق مفتوح أمامك ، فقد لا يكون العمل خالصاً ولكن ليس ذلك هو النهاية ، بمعنى أنه يتاح للإنسان أن يتدرج ويأتي بجزء من العمل خالصاً وهكذا يزداد شيئاً فشيئاً إلى أن يكون عمله كله خالصاً لله تعالى وذلك قد يُفهم من قوله تعالى (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) فالأعمال التي يؤتى بها ولا تتصف بالإخلاص لله تعالى هي في الحقيقة وبالاً على الإنسان ولكن لطف الله تعالى ينقذنا ويهيئ لنا أسباب الوصول إليه فـ..... (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) العزة بمعنى الغلبة والقدرة وهو تعالى غالب على أمره وبما أن الإنسان يعتريه الضعف فإنه يحتاج إلى الغفران فتدخل القدرة الإلهية لإخلاص العمل وإيصاله إلى مستوى جميل يؤهل الإنسان إلى قطع المسافات الشاسعة ونيل المراتب الكبيرة التي بها يصل إلى الله تعالى .

الثاني **الإخلاص طريق الاجتباء والاصطفاء :** إن الإنسان تارة يكون مخلِصاً وأخرى يكون مخلَصاً ، والفرق بين المخلِص والمخلَص هو أن المخلِص الذي يحاول أن يجعل أعماله لله تعالى ، أما المخلَص فهو الذي استخلصه الله لنفسه واجتباه لحبه تعالى ، ويتضح الفرق بين المعنيين من خلال فهم أن الإنسان تارة يأتي بالأعمال الصالحة ، وآخرى تكون أعماله الصالحة مؤدية إلى صلاح ذاته

وصلاح الذات يختلف عن صلاح العمل فقد يكون العمل صالحاً ولكنه لا يؤدي إلى صلاح الذات .

إن الوصول إلى مرتبة صلاح الذات يترتب عليه صلاح العمل بنحو دائم لكونه يصدر عن الصالح الذي انتخب وأصبحت ذاته خالصة لله تعالى فلا يصدر منه إلا الصالح ، وذلك معنى المخلَص. والوصول إلى ذلك المقام لعامة الناس يحتاج إلى عزة وقدرة وعفو ورحمة ورضوان ومغفره ليتاح من خلال ذلك التكامل والخروج من الرياء وتخليص النية من الشرك الخفي ، إن بعض الاعمال لها شوائب تحجب العمل وقد تحجب صاحبه عن الله تعالى إلا أن لطف الله ورحمته تتيحان للإنسان أن يمهد لنفسه أرضية يستطيع بها ومن خلالها يصل إلى الله تعالى .

قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)

السماء في اللغة كل ما علاك فأظلك فهو سماء ، وهنا يبين الله تعالى لنا أن هناك مجرات ومنظومات كونية تعلونا وهي أوسع مما نحن فيه حيث تستوعب كرتنا الأرضية وأموراً أخرى وهذه مجاميع سبع وردت في آيات متعددة منها قوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ

عِلْمًا) إن الله تعالى خلق كوكب الأرض الذي هو من المنظومة الشمسية وهي جزء من الكون الفسيح نعرف من خلالها قدرة الله تعالى وتدلل لنا على عظمة الخالق ، فالشمس التي نراها هي أكبر بمليون ومأتي مرة من الكرة الأرضية بحيث إذا وضعناها بعضها فوق بعض تشكل قرص الشمس ، كل ذلك يدعونا إلى التفكر في عالم الآخرة وسعته غير أن الإنسان يعيش المحدودية في كل الأشياء ولا يدرك عظمة الحق من خلال السعة والدقة في الخلق . وإذا كان الخلق بهذه السعة في عالم المادة حيث يكتشف العلماء المجرات بتلسكوبات محدودة لا تصل إلى رؤية المجرات والكواكب الأخرى وكلما درس الإنسان وبحث متعمقاً محاولاً أن يصل إلى إدراك سعة هذا الكون فلن يصل رغم أن هذا الكون محدود في عالم المادة وهو أقل بمراتب كثيرة من الوجود اللامادي ، قال تعالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا قَلِيلٌ) أي أنه لا يُشكل شيئاً بالنسبة إلى عالم الاخرة.

إن ما اكتشفه الإنسان من المجرات والكواكب يُقدّر بحوالي 200 مليار مجرة في الكون ، هذا النظام الذي نحن اكتشفناه بالوسائل التي نمتلكها ولعل ما لم نكتشفه أعظم وأوسع من ذلك وهو في ازدياد قال تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)[1]

1 الذاريات 47

وعليه فإن قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) يكون بمعنى متطابقة في دقتها وأحكام صنعها وترتب الحكم والمصالح عليها ولهذا أيضا جاء قوله تعالى (مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ) أي لا خلل فيه .

قوله تعالى (مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ)

يبين الله تعالى مطلبًا في غاية الأهمية هو أنَّ هذا الخلق الذي أبدعه بالرغم من سعته الهائلة والكبيرة واحتوائه على مجموعة متعددة من الأنظمة إلا أنك لا ترى في هذا السعة المترامية ولا في الأنظمة المتعددة خللاً ، ولا فطوراً بمعنى الفطر أي لا شق فيه ولذلك فإن المراد بالفطور الكسر ، ومحصلة الآية أنك إذا أمعنت النظر وأجلت الفكر في السعة التي خلقها الله والأنظمة التي أوجدها ستجد أنّ هذا النظام في غاية الدقة وكل مفردة لها فوائد قد ندرك بعضاً منها وقد يخفى علينا الكثير فالشمس تقضي على كثير من الأمراض الموجود في الكرة الأرضية ، وتعطينا مجموعة من العناصر كفيتامين (د) الذي يبني عظامنا ، ولها تأثير كبير هائل في حركة البحار ، لولاها لكانت البحار تتعفن ، وهي موضوعة في مكان محدد في النظام الكوني بحيث لو اقتربت قليلاً

من سطح الكرة الأرضية لأحرقتها ولو ابتعدت قليلاً عنها لتجمدت والقمر أيضـــا يترتب عليه حركتي المد والجزر في البحار ولولاهما لتعفنت البحار وما اســتطعنا أن نســتفيد من ثرواتها الهائلة ، وإذا التفتنا سنجد أن الكثير من أغذيتنا من البحار ، إذن كل شيء في الكون وضع بحساب دقيق واتقان محكم (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُور) وإذا نظرت إلى الإنســان الصــغير في حجمه ســتندهش من دقته وإحكام صنعه وما يشتمل عليه من العجائب وإن في الذرة رغم صغرها طاقة هائلة قد تنفجر وتسبب دماراً كبيراً .

قوله تعالى (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)

حسـير بمعنى محسـور وخاسـئ إذا اسـتخدم في النظر يكون بمعنى عاجز وإذا استخدم للكلب قيل له إخسأ فيعني ذلك طرده ، وحســـير يدل على غاية العجز في النظر ، أي إن النظر الذي يأتي للإنســان من أول وهلة يدرك من خلاله عجزه وقلة حيلته تجاه ما يشـــتمل عليه الكون من إحكام وإتقان ، أما قوله (كَرَّتَيْنِ) فليس المراد بها التثنية أي مرة ثم تأتي بمرة أخرى بعدها ، بل المعنى حاول أن تكرر النظر مرة تلو الأخرى ، والكَر يأتي بمعنى التكرار فحاول مرة أخرى ومرة أخرى ســـتجد أنك عاجز وخاســـئ لا

تستطيع أن تصل إلى أي خلل في هذا الكون حتى فيما لا تعرف أسراره والحكمة منه كبعض ما يحدث في الارض من زلازل وبراكين وأمراض ومشاكل وفقر وغنى وابتلاءات إلا أنها تجري وفق نظام دقيق بل هو غاية في الدقة والإتقان ، وكون عقولنا لا تصل إليه ولا تهتدي إلى إدراك الحكمة منه فليس ذلك معناه أنه عبث بل العجز يرجع إلينا ولو استطعنا سبر أغوار الكون وما يشتمل عليه من مطالب لرأينا الحكمة في ذلك .

قوله تعالى ((وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ

من جملة ما يدلل على الحكمة في الكون من نواحي متعددة تزيين السماء بمصابيح وكواكب تكون كالسرج تدلل على الإضاءة والجمال لهذا البساط السماوي والمتأمل يجد أنه يشتمل على مجموعة من الحكم :

الأول : أن كل نجم يدلل على مسار محدد ومعين :

(فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) أي أنَّ كل نجمة من النجوم في موقعها وفق نظام غاية الدقة ، بحيث لو تغير مركزها لاختل النظام الكوني ، وهذه النجوم لها ثبات يعطي

الكون جماله وكماله حيث يجعله محكماً ، فالمجرة التي نعيش فيها أيضاً هي غاية في السعة والنظام .

الثاني : الروعة الجمالية :

نحن نشـــاهد جمالاً لا يمكن أن يوصـــف في هذه النجوم ، وبالإضافة إلى ذلك الجمال فإن الإنسان يستفيد منها في غايات متعددة من جملتها الاهتداء قال تعالى (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) فالشيء الواحد تترتب عليه مجموعة من الحكم والمصالح ونحن نؤمن بالقطع واليقين أن هناك عشـــرات بل مئات وآلاف من المصـالح الأخرى التي تترتب على هذه النجوم لا نعلمها قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً) غير أن الله تعالى يشـــير إلى بعض ما ندركه وهو الدقة والإحكام في النظام الكوني أولاً ، والجَمال والزينة المترتبة على ذلك ثانياً فكما أن الإنســـان يتزين ببعض الأشياء التي تظهره بالمظهر الحسن ، فإن الله تعالى جعل السماء الدنيا مزدانة بالنجوم والكواكب.

الثالث : كونها رجوماً للشياطين :

ذلك أن الشيطان لديه قدرات هائلة ، يستطيع بها أن يخترق بعض السـماوات ويطلع على أخبار الغيب وليس كل الغيب ويبدو

من بعض الأحاديث أنه بعد بعثة نبينا محمد ﷺ هناك حكمة ومصالح في منع الشياطين من استراق السمع أي أنهم لا يتمكنون قال تعالى (إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ) وقد أشار الله تعالى إلى أن هذه النجوم والكواكب التي تزدان بها السماء لها مصالح إذْ تنفصل منها بعض النيازك لتكون رجوماً للشياطين ، الذين يسترقون السمع والأسرار من ملائكة السماوات ، وقد جعلها الله تعالى برهاناً للذين كفروا بأنعمه تعالى والآية دالة على أنَّ الله تعالى كلف الشياطين بتكاليف ويريد منهم أن يستخدموا القدرات التي زُودوا بها من قبل الله في الخير وليس في الشر ولكنهم عصوا الله تعالى وأرادوا أن يستعملوا قدراتهم في الشر والله تعالى حجَّم وضيق على قدراتهم من السعة التي أعطاهم إياها هكذا قال بعض العلماء ويسنده الدليل لأنهم مخلوقات لابد أن يكون لهم برامج يصلوا من خلالها إلى كمالهم غير أنهم عصوا الله ولم يرعوا أوامره تعالى وتاهوا في غيهم وتمادوا في ضلالهم وأرادوا أن يسترقوا السمع فجعل الله لهم الشهب لرجمهم وذلك عذابهم في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب أشد (وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) وعذاب السعير أي النار المستعرة ، والجان والشياطين خلقوا من نار ويعذبون بها ، ذلك أن النار على

درجات متفاوتة وهي كالطين بالنسبة للإنسان فقد خلق من طين و يمكن أن يعذب به ، كما لو سقط عليه جدار أو ضرب به .

والخلاصة إن الله تعالى يفصح أَّن السماء التي زينها بالنجوم وجعل مجموعة من المصالح تترتب عليها من جملتها أن ما ينفصل من هذه النجوم ويكون رجوماً للشياطين للحد من تصرفاتهم المضرة بالإنسان خصوصاً لمن أراد أن يسلك طرق الخير فإنه سيجد الصعوبة في ذلك ومع ذلك فإن لهم بعض القدرات المضرة قال ﷺ ((وإن الشياطين ليوحومون على قلب ابن آدم)) أي يدعونه إلى المعصية لكنهم لا قدرة لهم على الإنسان سوى التشويق فهم أشبه بالدعاية في العصر الحديث ، فالدعاية والإعلام لا تاثير لهما على سلب القدرة ولكنهما يزينان للإنسان فيتأثر بهما . وقد جاء في القران الكريم الرد على من تأثر بالشياطين بأنهم سلبوا قدرته وألجئوه إلى المعصية قال تعالى (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) إن الشيطان يفصح بأنه لا قدرة له على سلب اختيار الإنسان وما لديه

لا يعدو التسويل أما الاختيار فهو باق لدى الإنسان قال تعالى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) .

قوله تعالى (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ)

إن تمرد الشياطين بالغي والعبث والإضلال ، اما تمرد الإنسان فقد يكون اسوأ من تمرد الشياطين كالكفر بالله تعالى . والكفر في اللغة بمعنى التغطية قال تعالى (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ) الكفار هم الزراع الذين يغطّون بذور النبات بالأرض أي يودعونه الأرض ثم يغطونه بالتربة ويسمي المزارعون بالكفار لأنهم يمارسون التغطية وهو ما جاء في الآية . وهناك معنىً يلازم التغطية وهو الصد ومعناه النكران والجحود أي طُوِّر المعنى اللغوي للكفر وهو التغطية وارتقى وأصبحت له دلالات ولوازم منها الجحود والكفر فهو لا يستخدم فقط بمعنى التغطية وإنما بمعنى التغطية على الشيء الواضح مع نكرانه والتمرد عليه لذلك قال تعالى (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) والرب في اللغة هو المربي والمدبر لشؤون الذين يربيهم ذلك إن الله تعالى أوجدنا ثم ربانا فهو ليس فقط أبدع وجودنا على سطح هذا الكوكب المملوء بالعجائب التي لم يعرف العلماء إلى يوم الناس هذا كيف تكون النبات في هذا الكوكب

وكيف وجدت الحشرات والحيوانات وكيف تكوّن الإنسان فهم لا يعرفون السر في كينونة ذلك ، وما توصولوا إليه مجرد فرضيات ولو أراد أحد أن يناقش تلك الفرضيات سيجد فيها مواطناً متعددة يعتريها الضعف ولا تصمد أمام الأدلة العلمية ولهذا سيضطر مقسوراً إلى اليقين بوجود قوة عاقلة مهيمنة ومدبرة وراء هذا العالم أوجدت الإنسان في هذا الكون الفسيح فإذا بدأ يفكر ، اتضح له من خلال الأحداث بعض علامات الاستفهام كقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) و (إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) بأن له إلهاً خلقه وأوجده وزوده ببعض القدرات كالسمع والبصر والفؤاد ، وسخّر له ما في هذا الكون للإستفادة منه ، أي إن الكون بكل ما فيه من مخلوقات مسخرة من أجل بقاء وديمومة هذا الكائن الذي كرّمه الله ، فالنباتات والأُكسجين والحيوانات وجميع الأشياء الأخرى أوجدها الله من أجل الإنسان وجعل له مجموعة من النظم والقوانين الكونية والتشريعية كي يصل إلى كماله وسعادته وقد جعل سعيه يرتبط بتكامله مع تكامل غيره من الموجودات إذا على وفق ذلك النظام الكوني والتشريعي أي أنه تعالى سخَر بعض الموجودات لبعضها الآخر ليستفيد بعضها من بعضها قال تعالى (لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا) .

إن أهم ما يجب على الإنسان أن يتعرف عليه أمران :

أولهما الخالق : فوجود الله أمر بدهي قال تعالى (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) ومجرد أن يلتفت الإنسان سيدرك بفطرته وجود الباري تعالى فهو المنعم ، وهناك أدلة متعددة على وجوده تعالى لسنا بصدد ذكرها واستعراضها .

بعد أن يدرك الإنسان أن له موجد ومربي سخَر له ما في هذا الكون للاستفادة منه فهو إما أن يتبع أوامره أو يتمرد عليها فالناس ينقسمون إلى قسمين :

❶ **الأول** من يدرك الله بالفطرة والدليل وينصاع لأوامره ويسير على طبق القانون الإلهي وهذا يسعد برضوان من الله تعالى .

❷ **الثاني** من يتمرد عليه تعالى وهو وإن عرف الله مبدئياً لكنه قد يشك في وجوده فلا يطيعه وقد لا يسخر قواه وقدراته كعقله في طريق التعرف عليه تعالى ليصل إلى الإيمان بوجوده بمعرفة تدعوه إلى التسليم فيكون كافرًا بالله ،جاحدًا له تعالى ولا يلتفت إلى أنه أوجده ورباه بهذه النعم ، وعندما استفاد منها وكبر وأصبح يتمتع بقدرات هائلة وكبيرة تمرد على الله وذلك حال كثير من الناس لا يتعرفون على الله ولا يسيرون على النهج الطبيعي والذي عبّر عنه العلماء بوجوب شكر النعم المبتني على أن هذه النعم أوجدت من أجله وعليه أن يكون شاكراً لله رب العالمين .

ثانيهما إن اللّه قد رتب جزاء دنيوياً وأخروياً لمن تمرد عليه ، فالجزاء الدنيوي أن الإنسان يعيش الضيق والضنك في وجوده النفساني فكل من جحد بربوبية الله ولم يتوجه بفطرته إليه تعالى لن يعيش الإطمئنان والسكينة والاستقرار في دنياه ومصيره إلى جهنم في أخراه .

قوله تعالى (إذا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

يصف الحق تعالى عذاب الكفار بالنار ببعض الأوصاف :

منها : أنهم يلقون فيها ويشير هذا إلى نحو من الإهانة وسلب الاختيار واقتيادهم بالقسر والألجاء .

منها : سماعهم لصوت النار المرعب والذي عبر عنه بالشهيق وهو الصوت المرتفع والذي يتضمن أيضا سحبهم إليها بقوة لكون الشهيق عكس الزفير ومن ثم جاء كمال الوصف بأن جر النار لهم مع كونها تفور بهم وذلك لرفعهم إلى أعلى النار ثم خفضهم إلى أسفلها . والفوران هو الدفع بهم إلى الأعلى ويعطي معنى أن العذاب في حال من الاستمرار من الأعلى إلى الأسفل وبالعكس .

منها : أن النار من شـــدة شـــهيقها بهم وفورانها تكاد تتقطع (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) فالتميز هو التقطع والتفرق ولعل ذلك يأتي إما بمعنى أن النار تجزئهم لينصـــــهروا فيها كل جزء على حده وإما بمعنى أن لكل جزء من وجود الإنســـان عذاب قد يختلف عن عذاب الجزء الآخر والمعنى المتحصـــل من الآية أن النار في حالة من شـــدة فورانها قد وصـــلت إلى نهاية الغضـــب منهم ولهذا قد يبدو منهم سؤال لماذا نستحق هذا العذاب الشديد ؟

فيأتيهم الجواب من قبل الملائكة (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) ؟!

وهو اســتفهام تقريري يقصــد به التوبيخ ولا مناص لهم حينئذ إلا بالاقرار بوجود النذير ، وأن الســـــبب يعود إلى تكذيبهم وليس إلى عدم إيضاح الحجة لهم وعليهم .

قوله تعالى (إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

هذا القول محتمل أن يكون من لدن المكذبين رداً على المنذرين لهم أي أن انذار المنذرين هو ضـــلال بعيد عن الحق بل إنه واضـــح البطلان لكونه من الضـــــلال البين كما تشـــــير إلى ذلك كلمة (كبير) ويحتمـل أن يكون من قول الملائكـة في الرد عليهم بعـد إقرارهم بـالتكـذيـب غير أن الاحتمـال الأول هو الأقرب والموافق للسياق .

مقصد : من الأمور المستفادة من الآية أن ديدن المكذبين لا يكذبون فحسب وإنما يريدون أن يوضحوا لعامة الناس أن تكذيبهم بما جاء به الأنبياء والرسل غاية في الوضوح وكأنه لا يحتاج إلى تفكير وإمعان نظر لظهوره البين وهذا الادعاء لا يزال هو المسار العام لتكذيب المنكرين للديانات السماوية .

قوله تعالى (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

عندما يكشف لهم الغطاء ويصلون إلى تلك العاقبة الوخيمة يندمون ولات حين مندم ويتحسرون على ما فرطوا به من النعم العظيمة :

ومنها : نعمة السمع للحق والإعراض عنه فكأنهم لم يسمعوه ولم يطلعوا على ذلك .

ومنها : نعمة العقل في قولهم (أَوْ نَعْقِلُ) وهو تبكيت لأنفسهم بأنهم لم يستفيدوا من عقولهم الدالة على حقانية الرسالات السماوية وصدق الرسل .

أهمية العقل في تقرير المصير :

إن للعقل أهمية فائقة وكبيرة وقد أكدت عليه آيُ القران الكريم والروايات القائلة بأن الإنسان يجازى ثواباً وعقاباً على ضوء عقله قال تعالى (وَلَقَد ذَرَأنا لِجَهَنّمَ كَثيرًا مِنَ الجِنّ وَالإِنسِ لَهُم قُلوبٌ لا يَفقَهونَ بِها وَلَهُم أَعيُنٌ لا يُبصِرونَ بِها وَلَهُم آذانٌ لا يَسمَعونَ بِها أُولـئِكَ كَالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ أُولـئِكَ هُمُ الغافِلونَ) وقال (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) وقال (وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الأَلْبَابِ).

وعن رسول الله ﷺ : إذا بلغكم عن رجل حسن حال فانظروا في حسن عقله ، فإنما يجازى بعقله . وعنه ﷺ : إن الرجل ليكون من أهل الجهاد ، ومن أهل الصلاة والصيام ، وممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وما يجزى يوم القيامة إلا على قدر عقله . وروي عن الامام علي عليه السلام : (إن قيمة كل امرئ وقدره معرفته ، إن الله تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقول في دار الدنيا) . وحري بالمؤمن أن يعتبر بما جاء في الآيات من الإشادة بالعقل ليسير على خطاه ويعمل بتوجيهه لا ان يعرض ليكون من أصحاب السعير .

قوله تعالى (فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ)

إن أصحاب النار يدركون أنهم استحقوا العذاب بسبب إعراضهم عن الله تعالى ورسله وأوامره ، ولهذا يعترفون بذلك غير أنهم لا يستفيدون من اعترافهم شيئاً بل يحقّرون في عالم الآخرة ويقال (فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ) أي بعداً لهم عن النعيم المقيم ويستلزم ذلك خلودهم في جهنم .

قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

تتحدث الآية المباركة عن الجزاء الذي أعده الله تعالى للذين يخشونه بالغيب ، وللغيب عدة معانٍ :

الأول: أن المراد به هو القيامة : والآية تريد أن توضح أن الذين يخافون سوء الحساب ويخافون من اليوم الآخر - من جزائه وحسابه - ، لأن الله تعالى(لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا)[الكهف /49].

الثاني: أنّ المراد به الخوف من الله تعالى : لأن الله تعالى غيب وهو مستتر عن خلقه ولا يُرى سبحانه أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بحسب عقيدتنا - أتباع أهل البيت عليهم السلام- ولذلك صوّر تعالى

طلب قوم موسى منه رؤية الله تعالى في قوله : (فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً) [النساء/153]، بأنه أكبر من إنزال كتاب يختص بهم أو على واحد منهم ورغم أن موسى عليه السلام يعلم أن الله لا يرى ولكنه طلب من الله ذلك استجابة لهم كي يصلوا إلى الإيمان من خلال تأكيد أن الله تعالى محال أن يرى وقد جاء الجواب (لَن تَرَانِي) [الأعراف/143] ولن تفيد التأبيد -كما يقول الزمخشري - أي مطلقاً لن تراني (وَلَكِنِ انظُرْ إِلى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا) ، والتجلي هو تجلي لقدرته لأن الذات داخلة في الأشياء لا بموازاة كما قال الإمام علي عليه السلام وهو العارف بأسرار التوحيد وترجمان القرآن والله موجود في كل شيء كما حدثنا القرآن (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد/4] . والخوف من الله تعالى ، مصداقه الأوضح هم أهل البيت عليهم السلام ، الذين مدحهم القرآن في قوله تعالى (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) [الإنسان/10]. وذلك أنهم عليهم السلام وصلوا إلى أعلى مراتب المعرفة لله تعالى .

الثالث: بمعنى السر في مقابل العلن : إذ أنه في بعض الأحيان يُتاح للإنسان أن يمارس المعصية ويقترف الإثم في حال عدم وجود الناس

الذين يطلعون عليه ، ولكنه لا يفعل ذلك ، لأنه يرى الله تعالى حاضـرًا وناظرًا لسـلوكه وعمله ، والغيب هنا بمعنى أنه يشـعر بالرقابة الإلهية وحضور الله تعالى معه في كل آن ، وهذا ما حصل مع الصـدّيق يوسـف عليه السلام عندما أرادت زليخة أن تستميله لمقارفة المعصـية ، وقامت بوضـع غطاء على الصـنم الذي تعبده حتى لا يراها ، فقال يوسـف عليه السلام إني أخاف الله رب العالمين ، فكأنه يريد عليه السلام أن يقول إن كنت تخافين الصـنم الذي تعبدينه فتغطينه حتى لا يراك أثناء ارتكاب المعصـية فإنّ الإله الذي أعبده لا يخفى عليه شـيء ، وهو تعالى كما وصـف نفسـه (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسـان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[ق /16].

والعالم كله في محضر الله تعالى .

الرابع: إنّ الغيب هو النية : إذ أن نوايا الإنسـان في ضـميره يظهر بعضـها ويكتم بعضـها الآخر ، والنوايا تُشـكل روحًا لأعماله ، لأنّ أعمال الإنسـان الخارجية هي أجسـاد لنواياه ، فالنية روح العمل، كما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إنما الأعمال بالنيات وإنما لِكُل اِمرئٍ ما نَوى).

وبعض هذه النوايا تكون لله وحده لا شـريك له ، فيثاب عليها الإنسان بالأجر الكبير والجزيل ، ولذلك يتصدق الإنسان ويضُم

لهذه الصدقة دفع البلاء ، وهو عمل طيب وحسن ، وهذه الضميمة لا تنافي القربة لله تعالى ، لكن الأفضل أن يتصدق ولا يريد إلا الله تعالى وحتى دفع البلاء لا يريده ، بل يريد أن تجري المقادير بقضاء الله وقدره ، فهو لا يريد إلا الله تعالى وذلك هو الأفضل من ضم الضمائم لأن نيته حينئذ تظهر العبودية المطلقة لله وتكون خالصة لا تشوبها شائبة . وهي حينئذ مستترة ومخفية ، رغم إنها مصدر الأعمال العظيمة وهو ما تجلى بوضوح في تصدق الإمام علي عليه السلام بالخاتم ، والذي جسّد أعلى مراتب الإخلاص له تعالى مع العلم أنّ غير الإمام عليه السلام تصدق بسبعين خاتماً كي تنزل فِيه آية ، ولم تنزل فيه لأنّ الغاية لم تك هي الله تعالى. والقرآن الكريم يعبر عنه عليه السلام بأنه لا يريد إلا الله قال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا)[الإنسان/9] . إن للإخلاص مقام تترتب عليه ثمار لا يدركها المرء في الحياة الدنيا ، وقد نقل أحد العلماء الكبار أنه اتفق مع عالم آخر بأنّ من يموت قبل الآخر يأتي للحي في عالم الرؤيا ويخبره بما حدث له في عالم البرزخ ، وفعلاً مات أحدهما ، وبقي الآخر ينتظر كي يرى صديقه العالم ، ولكنه تأخر عليه ، وبعد فترة زمنية طويلة ، رآه في عالم الرؤيا وهو في مقام شامخ وعظيم ، فسأله : لماذا تأخرت عليّ ولم تأتني طوال الفترة الماضية؟ فقال: لأنني أعيش في نعيم دائم وراحة تامة .

فسأله : وكيف حصلت على هذا النعيم ؟ وهل أن ذلك بسبب مؤلفاتك الكثيرة ؟ فقال: لا .

فسأله: وهل أن ذلك بسبب تدريسك ؟ فقال : لا ، وإنما عملت عملاً كان مورداً لرضا الله تعالى .

فسأله: وما هو ذلك العمل الذي أدى إلى رفع مقامك؟

فقال: كنت أسير في يوم من الأيام في إحدى السكك ، وكان عندي تفاحة - كان الوضع الاقتصادي والمعيشي للناس في الماضي يجعلهم يشترون هذه الفواكه بالعدد وليس بالوزن كما هو في عصرنا الحاضر - وأثناء سيري في الطريق رأيت طفلاً يتيماً مع أمه وهو يبكي ، ويطلب من أمه أن تشتري له تفاحة ، وأمه تقول: يا ولدي ، أنت لا أب لك ، ولا يمكننا شراء تفاحة لك ، وإذا كبُرت تستطيع أن تشتري تفاحة ، ويقول العالم: إنّ تلك التفاحة التي اشتريتها كانت لعيالي ، ولما رأيت حالة الطفل اليتيم رقّ قلبي له ، فقدمت له التفاحة وقصدت التقرب بها إلى الله تعالى ، فكانت تلك التفاحة سبباً لرفعة مقامي ووصولي إلى هذا النعيم الذي أعيشه . وذلك مصداق قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ)، أي إنّ الذين تكون لهم نية مستورة عن الناس وخالصة لله تعالى لهم جزاء عظيم عند الله تعالى أي أن الله سيغفر لهم ويتجاوز عما صدر عنهم من هفوات وخطايا ، وقد ذكرت الآية

(المغفرة) بالتنكير ، ويعني ذلك أنّ تلك المغفرة عظيمة ، والجزاء ليس هو المغفرة فقط ، بل هناك أمر آخر وهو (وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) والحق تعالى عندما يصف شيئاً بأنه كبير فذلك يدلل على عظمته وكثرته ، كما أنه تعالى عندما يصف شيئاً بأنه قليل فهو يدل على محدوديته وحقارته كقوله تعالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا قَلِيلٌ) [التوبة/38] ، وهذا القليل يقابله ذلك الجزاء الكبير، (لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

قوله تعالى(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

تحدث الله تعالى في هاتين الآيتين عن صفة من صفات ذاته المقدسة ، وهي العلم ، فهو تعالى عالم بكل شيء ، لا يعزب عن علمه شيء ، ولهذا فإن الآية تنبئ عن علمه بكل ما يختلج في الأنفس من الأفكار والخطرات وإحاطته بوجود الإنسان ، ثم يأتي بعد ذلك ما يكون دليلاً على العلم والإحاطة بقوله تعالى (إلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) لتكون بمثابة البرهان والاستدلال على أنّه تعالى عالم ومحيط بكل ما يفكر به الإنسان وما يختلج في نفسه وعقله ، وذلك من خلال دليلين:

الأول أنّه تعالى هو الخالق للموجودات : وقد بدأت الآية بدأت باستفهام استنكاري ينكر على الجاحدين لعلمه تعالى بخلقه.

الثاني **أنّه تعالى لطيف خبير** : للطيف معنيان:

❶ **الأول: هو الدقيق السريع** : واللطافة عكس الكثافة وهي كل وجود ليس له طول وعرض وارتفاع ، أي لا يشغل حيزًا مكانيّاً ، والإنسان يشتمل في علمه على هذا المعنى فله خلجات تختلج في نفسه وهي لطيفة ودقيقة وسريعة ، و عليه فكل وجود لا يشغل حيزاً مكانيّاً نطلق عليه لطيف مثل وجود الجِن ، والملائكة ، فهي وجودات مجردة ، ولذا قال الفلاسفة : إنّ كل وجود مجرد يكون عالماً ، لأنّ الذي يمنعه من العلم هو الكثافة ، ولذا فإن الجن والملائكة وجودات عالمة، ومحيطة بكثير من الأشياء ولكن إحاطتها محدودة. وهناك وجودات مادية ولكنها لطيفة كالميكروبات والفيروسات ، فالعين العادية لا يمكنها أن تدركها ، بل حتى بعض المجاهر لا تراها . والله تعالى هو الموجد لهذه الموجودات اللطيفة سواء كانت مجردة كالملائكة والجن أو مادية كالفيروسات والميكروبات التي ترى بالمجاهر .

❷ **الثاني : أنّ المراد من اللطيف** : هي ذاته تعالى ، لأنها مجردة ، فلا تشغل حيزاً ولامكاناً ، بل هي في غاية التجرد حتى أنّ بعض

العلماء يقول : إنَّ الله تعالى مجرد حتى عن معنى التجريد ، وهذا معنىً دقيق ، يشـــير إلى أنّ اللَّطِيفُ هو الذي يكون في غاية اللطف لأنّ كل لطيف بمعنى الدقيق والسريع ما عدا ذات الباري تعالى . فاللطيف في الموجودات المغايرة لذاته يحتوي نحواً من الكثافة والتعلق والمحدودية ، وأما اللطافة بالنسبة لله تعالى فلا محدودية لها لأنها محيطة بكل موجود من الموجودات . ومعنى اللطيف إما هو الموجد للموجودات اللطيفة والدقيقة ، وإما أن المراد به هو الذات المقدسة المجردة بأعلى مراتب التجرد .

وأما الخبير على وزن فَعِيل ، فمعناه من يمتلك الخبرة بشيء من الأشـــــياء . وعندما نرجع إلى الآية (إلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير)، نجد أنها تبرهن على أنّ الله تعالى عالم بكل شيء لكونه لطيفاً خبيراً ، فهو يعلم لاتصافه باللطف والخبرة ، أي إنّه تعالى لكونه يتصـــف بذلك فهو يعلم بها إذا هو تعالى الخالق الموجد والمبدع للأشياء ، وهو عالم بها ، ولا بد من فهم أنّ إيجاد الله تعالى للأشـــياء لا يشـــبه إيجادنا لها ، لأنّ إيجاده تعالى بمعنى الابداع أما إيجادنا فهو بمعنى التجميع ، لأنّ دورنا هو تجميع المواد فينتج لنا شيئاً معيناً ، وأما نفس المواد الأساسية التي نصنع منها الأشـــياء فليس لنا أي دور في إيجادها ، والموجد لها هو الله تعالى ،

ولذا فإنه تعالى يستدل على علمه وإحاطته بكل الأشياء بخلقه لها .

ويمكننا صياغة الدليل بنحو أدق ، بأن نقول : إنّه تعالى أوجد الأشياء وجعلها مرتبطة به ، لا استقلال لها عن ذاته المقدسة ، وذلك ما عبّر عنه العلماء بأن وجودها تعلقي ورابط ، بل إن حقيقة وجودها هو عين الربط بالذات المقدسة بحيث لو انفك ارتباطها مع الذات لأدى ذلك أن تعود الموجودات عدماً محضاً. ويمكن توضيح هذه النقطة بمثال يقرب المعنى ، فالنور الذي يصدر من المصباح أو السراج يأتي منهما وبمجرد أن نطفئ السراج لا يبقى للنور وجود ، لأنّ وجوده ارتباطي تعلقي بالسراج أو المصباح ، وكذلك وجود الخلق هو نفس الارتباط بوجود الذات المقدسة لله تعالى، وهذا الكلام ليس جزافياً ندعيه ، بل هو كلام أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين يفهمون معاني التوحيد .

ولذا ورد أنّ بعض الناس تعجب من القدرات الهائلة والعلم الغزير لدى الإمام الصادق عليه السلام لأنه لم يستوعب مقام العصمة العظيم بل إن بعضهم يرى أن القول باطلاعه على الأشياء غلو ، وكأنه لم يقرأ قوله تعالى (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) ، فآصف بن برخيا أحضر عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في زمن قصير لا يتجاوز

لحظة ، وهذه القدرة الهائلة التي كانت عنده ليست خاضعة للموازين المادية مع إنها لا تقاس بما عند أئمة أهل البيت عليهم السلام من العلم ، ولذا ورد عن الإمام الهادي عليه السلام (أن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً كان عند آصف حرف فتكلم به ، فانخرقت له الأرض فيما بينه وبين سبأ فتناول عرش بلقيس حتى صيره إلى سليمان ثم انبسطت الأرض في أقل من طرفة عين وعندنا منه اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله مستأثر به في علم الغيب) [1]، والرواية توضح العلم الهائل والغزير لهم عليهم السلام ، والذي كان مصدراً لتعجب الناس فيتساءلون أنى لهم هذه العلوم ؟ وهل هم في زيادة ؟ وقد كان هذا النحو من الأسئلة يوجّه إلى الإمام الصادق عليه السلام، فيجيب (إبراهيم الأحمري، قال: حدثني عبد الله بن حماد، عن عبد الله بن بكير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أخبرني أبو بصير أنه سمعك تقول: لولا أنا نزاد لأنفدنا؟ قال: نعم .

قال: قلت: تزدادون شيئاً ليس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال: لا ، إذا كان ذلك كان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحياً ، وإلينا حديثا)[2] .

فالعلوم الجمة الموجودة عند أئمتنا عليهم السلام لا يصل إليها الإنسان حتى لو درس في أرقى جامعات العالم لأنّها علم لدُني من الله تعالى - يحتاج للطف خاص لا يتحصل إلا للمعصوم عليه السلام .

[1] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - الصفحة ٢٣٠
[2] الأمالي - الشيخ الطوسي - الصفحة ٤٠٩

وهو معنى الحوقلة ، عندما نقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فإن معناها أنّ جميع ما عندنا من قدرات وقوة هي منه تعالى فلا شـــيئية لعالم الموجودات إلا بالارتباط بالعلي القدير - وأما علم الإنسان فهو عرض قائم بالإنسان لأنّ ذاته موجودة وثابتة ، أما علمه وتفكيره فمن الكيف الذي يعرض على الذات ويتقوم بها ، والله تعالى أوجد الجوهر والعرض وأوجد الموضوع وكل ما يتقوم به الموضوع . وهو تعالى تارة ينسب الإيجاد لنفسه بنحو مباشر ، وأخرى ينسبه إلى نفسه بنحو غير مباشر ، قال تعالى (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ) فهنا أطلق الزارع على الإنسان بينما نفاه عنه في آية أخرى قال تعالى (أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) فنسب الزرع إليه تعالى ، وكلتا النسبتين صحيحة ، لأنّ مرجعهما له تعالى ، ولكن توجد واسطة في تلقي الفيض الإلهي وإلا فجميع هذا الكون خاضع لسلطة وهيمنة الباري تعالى . وهذه حقائق عظيمة نفهمها من فكر أهل البيت عليهم السلام، لكونهم عِدل القرآن الذي خلفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذه الأمة .

والنتيجة التي نصل إليها في قوله تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)، هي أنّه تعالى يعلم بكل ما يختلج في نفس الإنسان ويعلم بكل الموجودات لكونه خالقاً موجداً لها ، وهي مرتبطة به ، ولكونه لطيفاً خبيراً بها .

قوله تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وإليه النُّشُور) .

الآية المباركة من غرر الآيات التي تتحدث عن إحدى النعم الكبرى على الإنسان وهي نعمة تسهيل وتذليل الأرض ليستفيد منها ، فبالرغم من أنّ الأرض تتحرك ثلاث حركات ، حركة حول نفسها وحركة حول الشمس وحركة مع النظام الكوني ، إلا أنها تكاد أن تكون ثابتة بالنسبة للإنسان لاستفادته منها ، ولذلك شبهها الله تعالى بالحيوان الذلول الذي يستفيد منه الإنسان ، وهو تشبيه رائع ودقيق لأنّ هناك أصناف من الحيوان ، منها مُذلل للإنسان كالإبل والبغال والحمير يستطيع أن يستفيد منه ويمتطيه ويحقق به أغراضه ومقاصده ، فهو ذلول أي ذال له ومطيع ، ومنها حيوانات مفترسة ليست مطيعة له ومُذللة ، وإن كان الإنسان متسلطاً عليها بنحو ما . والآية المباركة تقصد أنّ الأرض ذلولاً ، بمعنى أنّ جميع ما فيها مسخر للإنسان يستفيد منه في الوصول إلى مقاصده وتحقيق أغراضه.

قد يقال إن بعض الأرض خشنة وصلبة أو ذات رمال متحركة أو درجة حرارتها عالية جداً أو درجة برودة منخفضة جداً بحيث لا يستفيد منها الإنسان ، وهذا متحقق في بعض الكرة الأرضية وفي

قسم منها ، إلا ان القسم الأكبر هو كما أفصح عنه القرآن ذلول وسهل ويمكنه الاستفادة منه في تحقيق مقاصده وأهدافه بل حتى الذي لايستفيد منه بنحو مباشر كالمنخفض الحرارة جداً والعالي البرودة يستفيد منه بنحو غير مباشر كما أثبت ذلك العلماء في أبحاثهم ، والله تعالى جعل الأرض بمثابة الحيوانات الذالة لنا والمنقادة إلينا ومع كونها منقادة إلينا وذلول لنا إلا أنها لم تخرج عن قدرته وسلطته ولا يمكنها ذلك إذ كل الوجود تحت سلطته وهيمنته المطلقة ، قال تعالى (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلى اللَّهِ الْمَصِيرُ) وهذا النحو من الملكية للأرض والتصرف الكامل بها يمكن أن يكون محلاً للانتقام الرباني إذا خالف الإنسان القوانين الإلهية فيه كما حدث ذلك مع قارون الذي طغى وتجبر، فسلط الله عليه الأرض فخسفت به (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ)

قوله تعالى(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

يأمر الله تعالى بالحركة والسير في مناكبها ، قال بعض المفسرين أنّ المناكب هي الطرق ولكن الظاهر أنّ المناكب هو ظهر الأرض ، لأنّ الله لما جعل الأرض مذللة أمرنا أن نسعى ونسير في مناكبها ، ونستفيد منها بكل ما يمكننا من ذلك ، والآية تدلل

على تحفيز السعي والحركة لتحصيل الرزق . ويحتوي المقطع على حيثية بلاغية هي أنّ الله تعالى سخر الأرض لنا ، ولكنه لم يأمر الإنسان بأن يبقى مكتوف اليدين و يجلس مكانه ولا يطلب الرزق بل يبقى منتظراً له ، وإنما أمرنا أن نسعى في مناكب هذه الأرض كي نحصل على رزقه .

وهناك فرق بين الإنسان وبين كثير من المخلوقات التي يتهيأ لها رزقها من دون جهد وسعي منها ، بينما أعطى الله الإنسان تلك القدرة الهائلة التي يستطيع أن يفكر بها ويصل إلى السبل المتعددة التي توصله إلى الرزق وهي العقل ، بالإضافة إلى الطاقات المادية والمعنوية التي أعطاه إياها كي يفعّلها ويستفيد منها في تحقيق أغراضه ومقاصده . وهو تعالى قادر على أن يوصل إليه رزقه من دون جهد ، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يحصل الإنسان على رزقه بالسعي والحركة ، فإذا تحرك هيأ الله له الأسباب ، وقد يتحرك لكنه لا يفلح في حركته ولا يصل إلى ما يريده ، ومع ذلك فإن الله تعالى يهيئ له سبباً آخر من حيث لا يحتسب ولا يتوقع فإذا أطاع الله وتحرك وسعى بالأسباب الطبيعة التي أمره الله بها ، كما كان ذلك من السيدة هاجر عليها السلام أم نبي الله إسماعيل عليه السلام عندما سعت وتحركت ، فقد حصلت على الماء من حيث لا

تتوقع ، من حركة رجلي ابنها . إذن حركة الإنسان وسعيه تفتح له أبواب الرزق .

وهو ما ركّزت عليه الآية فإنه تعالى بعد أن أمر بالسعي والمشي في مناكب الأرض للحصول على الرزق ، ربط رزق الإنسان بسعيه وحركته ، ولذا نجد أنّ الخامل الذي لا يتحرك ولا يسعى غير موفق في حياته ، وأما من يكدح ويتعب فإنّ عاقبته طيبة في الدنيا والآخرة .

إن الله تعالى لم يأمرنا بالمشي في مناكب الأرض من أجل الحصول على الرزق فحسب ، ولكنّ الحصول على الرزق وسيلة لبقاء الإنسان واستمرار حياته كي يعمّر الأرض ، وأما الهدف والغاية التي يصل إليها الإنسان فهي العلم بأنه تعالى إليه النشور كي يحاسب الإنسان على كل حركاته وسكناته وهو تعالى ينبه الإنسان بأن سعيه لابد أن يكون له هدف وغاية ، صحيح أنّ هناك كثيراً من الناس يطور إمكاناته وقدراته في الحياة الدنيا ولكنه يسعى للدنيا فقط ، ولتحصيلها ولا يوجد عنده غاية غيرها ، وهذا السعي نحو الدنيا والتناسي للآخرة التي هي الغاية الحقيقية يوصل الإنسان إلى الخسران والشقاء ، أما إذا اعتبر الإنسان أنّ الدنيا طريق ووسيلة للوصول إلى الآخرة ، فإنّه سوف يصعد في مدارج الرقي والسعادة والفوز برضوان الله تعالى . ولهذا فإن على

الإنســـان أن يســـعى ويتحرك في الدنيا ، مع التفكير في العواقب والغايات والأهداف من سعيه ويتذكر الحساب والنشور بين يدي الله تعالى الذي يسأله عما قام به من أعمال .

قوله تعالى (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فإذا هِيَ تَمُورُ)

تذكر الآية الشـــريفة الإنســـان بالرقابة الإلهية والهيمنة المطلقة له تعالى والخوف منه تعالى بعدم التعدي على حدوده والالتزام بها . وتبدأ الآية باســـتفهام إنكاري لأهل الأرض ، لتقول لهم : هل تأمنون من أن يخسف الله تعالى الأرض بكم ؟

وللعلماء في هذا المقطع عدة أراء :

الأول : أنّ المقصـود هو أنّ قدرة اللّه تعالى تتجلى في النظام الكوني السماوي أكثر منها في الأرض فإذا قال تعالى (أَأَمِنتُم مَّن فِي السـَّمَاء) فيعني ذلك أنّه تعالى يهيمن على هذا النظام الكوني الدقيق والعظيم ، ومن باب هيمنته على الأرض ومن فيها وليست تشير إلى أن السماء هي مكان للحق تعالى .

الثاني : الثاني : أنّه يشـير إلى أنّ اللّه تعالى جعل الكون بيد الملائكة يأتمرون بأمره فيه ، كملك الموت الذي يقبض الأرواح

، والنار التي عليها تسعة عشر وبقية الأمور الكونية التي لها ملائكة تدبرها وتديرها قال تعالى(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) فيكون قوله هل أمنتم هؤلاء الملائكة الذين هم في السماء ولهم قدرات فائقة زودهم الله تعالى بها ويستطيعون من خلالها أن يخسفوا بكم الأرض .

وقوله (فإذا هِيَ تَمُورُ) والمقصود منه تتردد بمعنى تموج لأنّ المَوَر بمعنى الموج ويشعر بذلك من يعيش في المناطق التي فيها براكين وزلازل ، حيث لا يشعر بالهدوء والراحة والسكينة ولا يلتذ بأي شيء من الأشياء ، بل يعيش الاضطراب والخوف ، وذلك تذكير للإنسان بأنه على الرغم من أنّ الله تعالى سهل له الأرض كي يتمكن من الاستفادة منها ، إلا أنّ أمرها يرجع إليه تعالى (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إلا إلى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ) فكل شيء يرجع إلى الله ، وليس هذا فقط ، بل إليه تعالى تنتهي الأمور (وَأَنَّ إلى رَبِّكَ الْمُنتَهَى) فإذا تعدى الإنسان على حدود الله تعالى واطمأن بذلك وسكنت له نفسه بمعنى أنه أمن مكر الله تعالى عرّض نفسه للسخط الإلهي ، قال تعالى (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) قال السيد الطباطبائي (رحمه الله) يحتمل هنا في قوله تعالى: (فإذا هِيَ تَمُورُ) أنّ المَوَر هنا هو التعذيب ليس في عالم الدنيا فقط ، بل حتى إذا وضع هؤلاء في قبورهم لا يكون لهم استقرارٌ ، لأنّ الأرض

سوف تموج بهم وتضطرب وتتحرك وتزلزلهم . ولهذا، فإنه تعالى يذكرنا كي لا نتعرض لنقمته وعذابه من خلال الكفر بنعمه ، الذي يؤدي إلى اضطراب الأرض ، والخلاص من العذاب يتحقق بانتباه الإنسان إلى أنّ استفادته من الأرض تكون باستقراره فيها مع مداومته واستمراره على شكر الله تعالى على نعمه بنحو عام ، وعلى الأرض بشكل خاص لكونها من النعم الإلهية التي تستحق الشكر والثناء قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام تذكيراً بهذه الحقيقة (فبعث إليهم أنبياءه وواتر إليهم رسله ليستأدوهم ميثاق فطرته وليذكروهم منسي نعمته وليثيروا لهم دفائن العقول).

فهو تعالى هيأ للإنسان كل الوسائل التي من شأنها تذكيره وإيقاظه من غفلته ، وعليه فأنّ الأرض التي جعلت قراراً وسكناً ، لا بد من الاستفادة منها في الرقي به إلى أعلى المستويات وعلى جميع الأصعدة ، والحذر من استغلالها للمعاصي والذنوب . وهو تعالى يؤكد على أنّ هذا النظام الكوني يسير وفق حكمة ، ليستفيد منه الإنسان ، وأنّ للأرض حسب قوانين العلم الحديث طاقة محدودة سوف تنفذ ، وكذلك الشمس والكواكب والنجوم . فإذا كانت هذه الموجودات معرضة للفناء والزوال والاضمحلال ، ومن ضمنها الأرض التي تعرضت للخسف والتغيير في الأزمنة الماضية لكثير من الأمم السابقة عندما عصت الله تعالى ، فإن الخسف فيها محتمل

ولا يوجد مانع منه إذا طغى الإنسان وعصى ربه وتكبر على الأنبياء والرسل .

قوله تعالى (أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

استمرت هذه الآية في أسلوبها بالتهديد والوعيد من قبل الله تعالى فيمن يكفر بالنعم الإلهية ، ويتعدى حدوده ويتجاوز القوانين والسنن التي أرادها الله تعالى ، وأن المصير الذي ينتظر هؤلاء هو العذاب الشديد في الآخرة ، وبالخصوص لمن لم يتب ويرجع إلى الله تعالى، وأما في الدنيا فقد أوضح تعالى أنّ هناك عذاباً للعصاة والكفرة الذين يتجاوزون القانون الإلهي ، وهو ما أكدته الآية السابقة : (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فإذا هِيَ تَمُورُ) .

والمقصود (بمن في السماء) – كما ذكرنا في الآية السابقة – هو أن الله تعالى لكونه إلهاً في السماء والأرض ، فيشير إلى قدرته تعالى التي تتجلى في السماء وعالم الملكوت الأعلى ، وقد يكون المقصود – كما قال السيد الطباطبائي- هو الملائكة الذين يتولون

أمر الكون ، وهم المدبرون لهم باذن الله (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) كما مر سابقا .

قوله تعالى (أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا)

أي تأمنون وتطمأنون من أنّ الله تعالى لا يرسل عليكم ذلك الحاصب وهو الريح العاتية التي تقل الحجارة ، وتمثل قوة هائلة وقدرة جبارة يسلطها الله تعالى على من يشاء من عباده وهذه الرياح التي تحمل الحجارة هي التي عذّب الله بها قوم لوط عندما كفروا ومارسوا الرذيلة والفاحشة عياناً جهاراً وأفشوها في المجتمع. وهناك نوع آخر من الرياح العاتية التي لا تقل الحجارة ، وتتحرك بسرعة قوية جداً فتقتلع الأشجار وتؤدي إلى قلب السيارات وتؤثر على الأبنية ولا تسمى حاصباً لأنها لا تقل الحجارة.

قوله تعالى (فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

أي أنّ الغضب الإلهي إذا اشتد ولم يتب هؤلاء القوم الذين استحقوا النقمة فسوف يعلمون عند ذلك كيف كان إنذار الله تعالى لهم ، وهو تهديد ووعيد شديد لمن يخالف الأوامر الإلهية ويطغى . إن الله تعالى يمهل الإنسان ويعطيه الفرصة كي يتوب

ويؤوب ويرعوي عن أفعاله السيئة التي كان يقترفها ، وإذا لم يتب فقد عرض نفسه لتبعات الإنذار الإلهي والعقاب الشديد.

وقد أبان الله تعالى أن التهديد والوعيد لا يختصان بأمة من الأمم بل يشملان جميع الأقوام ، وهو سنة إلهية جارية في الأمم السابقة وتجري أيضا على هذه الأمة قال تعالى (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) وقال تعالى (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أي إن الأمم السابقة عندما كذبت أنبياءها ورسلها تعرضت للعقاب الإلهي ، بحيث أنّ كل قوم من الأقوام سلط الله عليهم نوعاً من العذاب كالطوفان والإغراق والخسف والرياح الشديدة ، وغيرها من أنواع العذاب التي تُدلل على أنّ البشرية مهما كانت في قدراتها وفي تطورها التكنولوجي الذي وصلت إليه فإنها خاضعة تحت سلطة الله تعالى الدال عليه قوله تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

والآية المباركة وإن كانت تؤكد أنّ الله تعالى يهدد عبر الإنكار والوعيد ولكنها دالة على لازم الإنكار وهو العذاب فيكون معنى أنكرنا عليهم بمعنى عذبناهم بإنكارهم للأنبياء والرسل وتركهم للهدى مع وجود البينات الواضحة والمعجزات الباهرة التي لا يمكن صدورها من البشر الاعتياديين فاستحقوا العقاب

بالتعذيب الفعلي والعملي الذي يتحقق في الواقع . وعندئذ يصبح معنى قوله تعالى (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)دالا على معنيين :

الأول : أنّ إنكار الله عليهم يكون بالعذاب لهم .

الثاني : أنّ نفس التعذيب هو إنكار وبلاغ .

والإنكار من الله تعالى ليس شرطاً لمن عاصروا نزول الآية في عصر النبي ﷺ، بل قد يكون للأمم التي سوف تأتي من بعدهم كما تقدم ذلك (قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) .

إنه تعالى يأمرنا بالسير والنظر في حال الأمم السابقة التي تعرضت للعذاب والانتقام الإلهي ، كقوم نوح وصالح وشعيب ولوط وموسى وغيرهم ممن أنكر الله عليهم بتعذيبهم دنيوياً أو أخروياً بحسب الذنوب التي اقترفوها كي لا يكون مصيرنا نفس مصير تلك الأمم السالفة ، وكي نتنبه ولانغفل عن اتباع الأنبياء والرسل والاوصياء ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد الموصل للنجاة والسعادة الأبدية .

قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

الآية المباركة غاية في الأهمية فهي تفصح عن أمر تكويني يتعلق بالكائنات الحية التي ينبغي للإنسان أن يتفكر فيها ويتأمل ليعتبر فطيران الطيور في السماء دون أن تسقط على الأرض مع وجود قوة الجاذبية الهائلة يدلل على أن تداخل القوانين الكونية مع وجود انتظام بينها والله تعالى يوجه خطابه بالنظر والتفكر للإنسان بنحو عام سواء كان عاصياً ومتعدياً على القانون الإلهي أو كان منصاعاً لأمره تعالى فإن الظواهر الكونية تزيد في إيمان المؤمن وتردع العاصي عن عصيانه .

فعندما ننظر لظاهرة قانون الجاذبية في الأرض نجده من الظواهر العميقة التي تمتاز بالدقة المتناهية خصوصاً عند تطبيقه على الطيور التي تتكون من أجسام كثيفة ترتفع إلى جو السماء فتطير بكيفيتين مختلفتين :

الأولى : أن تصف الطيور أجنحتها أي تبسطها بشكل كامل .

الثانية : أن تقبض أجنحتها .

وقد نجد بعض الطيور تطير بكلتا الكيفيتين ، فهي تحرك أجنحتها وتقبضها تارة ثم تمد هذه الأجنحة لتتعلق في الهواء

والريش الذي يكسو هذه الطيور يلعب دوراً كبيراً في حفظ التوازن الدقيق لها ويحميها من التعرض للسقوط أثناء طيرانها .

وقد أودع الله تعالى غريزة الطيران فيها وأوحى إليها - أي ألهمها - كيفية الاستفادة من ذلك الطيران كما هو الحال في النحل (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) فهذا النحو من الوحي يأتي بمعنى الإلهام الخفي الذي يوصل الفكرة بطريقة غير ظاهرة .

إن قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) يشير إلى أنّ هناك فائدة تعود على الإنسان من نظره وتأمله وهو ما حدث فعلاً عندما استثمر الإنسان ذلك النظر والتفكر بطريقة إيجابية وانعكس ذلك على تقدمه التقني والتكنولوجي ، ولإيضاح هذه النقطة سوف أنقل لكم موقفاً حدث لي عندما سافرت إلى كندا وذهبت إلى مدينة جميلة وراقية اسمها فانوكوفر Vancouver الكندية وزرت متحفاً خاصاً بالطيران ، وقد راق لي ذلك المتحف الرائع وأُعجبت به كثيراً في تصميمه وصوره الجميلة وقد وضع فيه صورة لكثير مما يطير وإلى جنبها ملصق تعريفي كُتب في أسفله كيفية طيرانه ومعلومات علمية دقيقة

ومنوعة عنه ، ومن ضمن الأمور التي ذكرت كيفية استفادة العلماء من حركة هذا الطير في علم الطيران .

أي أن الطفرة التقنية التي وصل إليها العلم الحديث في مجال الطيران قد تحدث عنها القرآن الكريم قبل ذلك بقرون بقوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) إن القرآن الكريم أشار في آيات متعددة إلى الجانب العلمي والمكتشفات التي لم يصل إليها العلم إلا في العقود الأخيرة ، ولذا نجد أنّ كثيراً من العلماء أكدوا على أنّ بعض المكتشفات العلمية ذكرها القرآن الكريم ، وأتذكر في هذا المجال أنه قبل اتحاد الألمانيتين كان رئيس ألمانيا الشرقية مانفريد كيرلاخ Manfred Gerlach يحضر احتفال تخريج مجموعة من الطلاب فذكر في كلامه بعض ما جاء في القرآن الكريم في الجانب العلمي منه (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) حيث بينت الآية دور الرياح في تلقيح النباتات ، وركّز الرئيس الألماني على أنّ العرب - ويقصد النبي ﷺ في القرآن- أشاروا إلى هذا الاكتشاف العلمي قبل أربعة عشر قرنًا .

إنّ هذه القوانين والعجائب الكونية يذكرها الله تعالى للإنسانية جمعاء كي تستفيد منها وأهم الفوائد التي تعود عليها هي إزدياد إيمانها من خلال معرفة هذه القوانين كقانون الطيران

لدى الطيور في حال اصطفاف أجنحتها أوقبضها ، إذا أنّ الله تعالى هو المقنن لقانون حفظ التوازن النوعي بتلك الكيفية التي يستفيد منها الطير ومعرفة الإنسان لهذا القانون الإلهي الدقيق يوصله إلى الإيمان بالله تعالى وإلى انعكاس تلك القوانين على حياته ليستفيد منها .

وقوله تعالى (مَا يُمْسِكُهُنَّ إلا الرَّحْمَنُ) ، أي لولا أنّ الله تعالى أجرى هذا القانون وقدّره ثم منح الطير القدرة الفائقة للتغلب على قانون الجاذبية وحفظ التوازن في حركة طيرانه من خلال الريش الذي يكسي جسده لما استطاع أن يطير. والآية تبين رحمانية الله تعالى بالكون وبالطيور ، حيث يُمَكِنُها من الطيران وقطع المسافات الطويلة والانتقال والسفر من قارة إلى أخرى ، كما أنّ انتقال الطيور وحركتها على شكل أسراب بكيفيات مختلفة ، استفاد منه الإنسان في تنظيم حركة الطيران الحديث .

وقوله تعالى (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) أي أن الله تعالى أعطى هذا القانون الإلهي لكونه عالماً مبصراً بدقائق وخفيات مَن يستفيد منه من الناس والحيوانات والجمادات . والمؤمن يدرك بدقة عمق هذا القانون الإلهي ودوره في إزدياد إيمانه وعبوديته لله ، كما أنّ العاصي يستفيد أيضاً من هذا القانون في معرفته بأنّ الخالق لم يوجد الخلق عبثًا ، وإنما خلقه على ضوء قوانين دقيقة كلما

تفكر بها الإنسان سوف يبتعد عن المعاصي ويصبح قريباً من الله تعالى ، وبالتالي قد يتغير إيمانه بذلك .

قوله تعالى (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ)

أي من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور ، الاستفهام هنا للإنكار وقد ذكرنا أنّ الكافر هو الجاحد لله تعالى أو لرسله ويأتي أيضاً بمعنى أوسع هو المتعدي على قوانين الله تعالى والكافر بأنعمه جل وعلا .

أصل الكفر هو الجحود بالله تعالى ثم إن عدم التصديق برسله والتعدي على القوانين التي جاء بها الرسل والأنبياء يعتبر بمنزلة الجحود كما أنّ الكفر بأنعم الله بمنزلة الكفر به جل وعز .

ومعنى قوله (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ) تبيان أن الله هو الكبير المتعال ، قادر على تعذيب الجاحدين والكافرين المنكرين لأنعمه تعالى ، وبعد أن تبينت هذه الحقيقة في الآيات التي سلفت يستعرض الحق تعالى بعض مظاهر القدرة التكوينية في قوله (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) ثم يردف ذلك بقوله (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم) ليتبين أن الكافر يتصور أنّ له من ينصره من دون الله ويستطيع أن يأمن العقوبة

الإلهية وعليه فإن العذاب الإلهي لن يصـــــيبه وقدرة الله تعالى لا تدركه ، هكذا يتصور الكافر الطاغي إذا توافرت لديه أسباب القدرة والقوة كالســلطة والمال ، فيفصــح الحق تعالى أنه لا أحد ينصــر الكافر من قدرة الله تعالى أو يحميه من هيمنته تعالى ذلك أن قدرته تعالى مهيمنة على جميع عوالم الوجود فإن تصــور أن هناك جند يحميه أو شـــــيء ينجيه فهو يعيش الوهم ذلك أن الله تعالى مالك الملك وملكيته تعالى ملكية تختلف عن ملكية غيره فكل ما في الكون من نبات وحيوان وجميع العناصــر ملك لله تعالى وحتى من يتعدى على الله تعالى فهو تحت ســـــلطانه ، وســـــيدرك هذه الحقيقة ســاعة تقطع الســبل به ولهذا فإن فرعون لما أدركه الغرق قال (قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِســـــْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُســـْلِمِينَ) فأدرك أن الطغيان بالملك والســـلطنة أعماه عن هذا اليقين ، وأســدل ســتاراً بينه وبين الحق تعالى ، ولما جاءته الشــدة و أراد الله تعالى أن يظهر له آثار القدرة والهيمنة ارعوى ورجع ولكن فاته الأوان . إن الله تعالى ينبه الناس على أنه لا يســتطيع أحد أن يحمي الإنســـــان ويكون جنداً له ، وقد ورد في الأدعية تبيان ذلك ففي بعضــها (لا ملجاً ولا منجاً منك إلا إليك) أي لا أحد ينجي من الله إلا الله .

والجند في الأصل هي الأرض التي تتكون من حجارة صلبة يكون بعض هذه الحجارة يصطف أمام بعضها الآخر فتشكل قوة وقدرة وصلابة بحيث لا يتاح للإنسان من شدة صلابة هذه الأرض أن يستفيد منها لقوتها ، ثم توسع في استعمال ذلك فأطلق على كل شيء يدلل على القوة من الإنسان كالجيش والكتائب العسكريه لأنها فرقة من الجند تمثل قوة تحمي شيئاً والاتيان هنا بلفظة (الرحمن) مع أنه كان ينبغي بادئ ذي بدء أن يكون من الجبار القادر المهيمن وليس من الرحمن الذي يعطي الخير ، ولكن الأتيان بلفظة (الرحمن) إشارة إلى غاية اللطف والدقة بمعنى أنّ هؤلاء الكفرة والعصاة المتمردون على الله تعالى يحاربونه ولكنهم يعيشون في كنف رحمانيته ويستفيدون من رزقه فكل ما في الكون مظاهر لهذه الرحمانية كالأكسجين الذي يستنشقه الإنسان والأرض التي يعيش عليها وتسخير مظاهر الكون له كل تلك الأمور تصب في صالحه بل إن عصيانه لا يتحقق إلا بنعمة منه وذلك بالقدرة التي منحه إياها .

قوله تعالى (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلا فِي غُرُورٍ)

الغرور يأتي بمعاني متعددة منها :

الأول الخداع : كمن يبرم صفقة مع شخص آخر فيظن أنه ربح ثم يتبين له أن فيها غرر بمعنى أنه خُدع في الصفقة إذْ هي لا تسوى ولا تعادل المال الذي دُفع بإزائها والغرور هنا بمعنى الخسران وحينئذ يكون المعنى أن الكافر المتمرد على القوانين الإلهية في خسران لأنه لا يستفيد حقيقة من نعم الله ويعصيه بها ولا يسلك بها طريق عبودية الله ليصل إلى كماله ، وبالتالي فانه يعيش الخسران بخلاف من جعل نفسه وماله لله تعالى فقد ربح الصفقة وقد جاء ذلك في قوله تعالى (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) أي أنه تعالى اشترى جميع ما لدى الإنسان وثمنه دار الخلد والرضوان ويتضح من خلال الآيه أن من لم يك كذلك فهو في غرور.

قد يقال إن من تمرد على الله فقد تمتع بالنعم الكثيرة وإن خسر الاخرة فهناك كثير ممن يرفل في أثواب الرفاه والسعادة في عالم المادة بل يظن كثير من الناس أنّ ذلك هو الرابح غير أن الحق خلاف ذلك لأن الربح يكمن في الاستفادة من نعمه تعالى في الحصول على رضوانه وقد شرح هذه القاعدة أئمة أهل البيت عليهم السلام بأنّ المهم من عمر الإنسان هو الاستفادة من ذلك العمر وذلك هو

الثروة الحقيقية لوجوده . روي عن الامام الكاظم عليه السلام (إنه لن ينقضي عنّي يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء حتّى نفضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون)[1] أي إن الجميع سيغادر هذه الدنيا إلى عالم الآخرة وعندئذ لا يفلح الظالمون ويربح المتقون .

الثاني **الهلاك** : فكأن الكافر بكفره وتغطيته على نفسه للحقائق يؤدي بنفسه إلى هلاكها وذلك واضح لأن العاقبة هي الوصول الجحيم .

الثالث **الغطرسة والتكبر**: على الله بالخروج عن سراط عبوديته والسير على وفق النزوات والأهواء فيصبح الكافر بتكبره على الحق محارباً لله تعالى .

قوله تعالى (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)

الله تعالى هو مصدر الوجود وهو الرازق الخالق ، ومسألة الرازقية لله تعالى من شؤون ربوبيته التي أكد عليها القرآن الكريم

1 - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٨ - الصفحة ١٤٨

والروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أهل البيت عليهم السلام ، وهي غاية في الأهمية ، والآية المباركة هنا تشير إلى ذلك .

والاستفهام هنا من أجل إلفات نظر الإنسان إلى أنه لا ينبغي له أن يتمرد على الله الخالق الرازق للكائنات الذي يغدق عليها العطاء وعيشها واستمرار وجودها وتسخير بعضها لبعضها الآخر كل ذلك من الله تعالى ومن أجل أن لا يغفل الإنسان عن التوجه إلى إدراك ما يرجع إلى شؤون الربوبية لتأثير ذلك عليه إيجاباً . وشؤون الربوبية هي الإحياء والإماتة والرزق والبعث والحساب والنشور بين يدي الله تعالى فهو الرزق لكل عوالم الوجود .

معنى رازقية الله تعالى للخلق

وهنا لابد لنا من إيضاح مطلب يتعلق برزقه تعالى للخلق فقد نعبر بتعابير متعدده وكثيرة قد يظهر من بعضها ما يتنافى مع كونه هو الرازق إذ يقول بعض إن رزقي بيد فلان وقد يتوهم من ذلك التعبير أن فيه شركاً ، من هنا لا بد أن يفهم المعنى الدقيق للرازقية إذ إنّ فهم المعاني من الدقة بمكان فكثير من الناس يقع في إشكالات لاعد لها ولا حصر ويرجع السبب في ذلك إلى عدم فهمه للمعنى الصحيح .

إنّ المعنى الصحيح لرازقيته تعالى أن جميع النعم والخيرات ترجع إليه بالاستقلال وقد يرجع بعضها إلى غيره بالتبع لكونه واسطة في الفيض كما يعبر الحكماء بمعنى أن حقيقة الرزق ترجع إلى الله تعالى غير أنه يجري رزقه بواسطة بعض خلقه ومن ذلك يتضح أن من يقول إنّ رزقي بيد فلان إن كان يعتقد أنه مصدر العطاء بالاستقلال فهو شرك لأنّ مصدر العطاء استقلالاً هو الله تعالى . وإن قصد أنه يُجري على يده الفيض الإلهي كما يجري على يد الجمادات والنباتات والحيوانات لأنّ الكون كله مسخر منه تعالى فلا مانع من ذلك ، وقدجاءت التعبيرات مختلفة على النحوين وبالنسقين ففي بعضها ما يفصح عن كونه تعالى هو الرازق وحده لا شريك له وفي بعضها الآخر ورد أن غيره رازق أو زارع أو منعم وهلم جرى . إذن قولنا إنه هو الرازق يوضح ما تقدم بيانه وقولنا إن غيره رازق أو منعم بمعنى أنه مجرى للفيض الإلهي. وسنورد بعضاً من آي القران الكريم التي جاءت بالنحوين قال تعالى(أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) بمعنى أن حقيقة الزرع استقلالاً ترجع إلى الله أما الإنسان الزارع فهو لا يعدو عن كونه مصدراً لجريان الفيض على يديه إذ يضع الحَب في التربة ثم يسخر الله له عشرات بل مئات من القوانين الكونية التي

تجعل الحبة تنبت فهو تعالى الزارع الحقيقي والإنسان زارع لكونه مجرىً للفيض الإلهي .

وهكذا الأمر في بقية الأشياء قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ) فعيسى عليه السلام لا يوجد المادة إبداعاً لأنّ الطين موجود ولكنه يتصرف فيه بنحو ما فيجعل الله ذلك طيراً ، لأن كل القوانين في عالم الكون نهاية السلسلة فيها ترجع إلى الله تعالى وكقوله تعالى (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا) والآية جد واضحة إذ أن الله تعالى يسند الرازقية لغيره مع أنه هو الرازق . وهناك أقوال عرفية كقولنا أمطرت السماء وأنبت الربيع البقل وشفى الطبيب المريض ويسمى ذلك بلاغياً بالمجاز العقلي - وهو إسناد الفعل إلى غير فاعله – إذ من المعلوم أن المؤثر على نحو الحقيقة هو الله تعالى .

إن أئمة أهل البيت عليهم السلام وهم الذين يفهمون التوحيد الخالص ولا يمكن لأحد أن يفقه حقيقة التوحيد دون الأخذ عنهم وقد صدر منهم معاجز وكرامات وتصور بعض البسطاء أنّ الإمام عليه السلام هو إله فرد الائمة عليهم السلام ذلك وأبانوا أنهم (عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وكذلك الحال بالنسبة

للرسل والأنبياء فإن جميع ما صدر عنهم ومنهم من معاجز وكرامات لايدلل ذلك على أنهم مستقلون في فعلها من دون الله تعالى بل يدل على عبوديتهم وقربهم من الله وقد ورد عنهم (قولوا فينا ما شئتم ونزهونا عن الربوبية) وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((لا تتجاوزوا بنا العبودية ، ثم قولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا، وإياكم والغلو كغلو النصارى فإني بريء من الغالين) . وعن الامام الصادق عليه السلام : (أجعلونا عبيداً مخلوقين وقولوا فينا ما شئتم) (الثاقب في المناقب/ 402، الخرائج والجرائج ج2/ 735). وعنه عليه السلام : (أجعلوا لنا رباً نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم) (المحتضر/ 65،مختصر بصائر الدرجات / 204) . عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث معرفتهم بالنورانية المشهور: (يا أبا ذر أنا عبد الله عز وجل وخليفته على عباده ، لا تجعلونا أرباباً وقولوا في فضلنا ما شئتم فإنكم لا تبلغون كنه ما فينا ولا نهايته ، فإن الله عز وجل قد أعطانا أكبر وأعظم مما يصفه واصفكم أو يخطر على قلب أحدكم ، فإذا عرفتمونا هكذا فأنتم المؤمنون) (بحار الأنوار 2/26) . وكل ذلك يرجع إلى معنى ماورد (عبدي أطعني تكن مثلي) والطاعة والعبودية المطلقة لله تعالى يجسدها محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم .

وماصدر عنهم من كرامات ومعاجز وعلوم يعود إلى كونهم مجرى للفيض الإلهي وجميع قوانين الكون بيد الله بالاستقلال لا

يخرج أحد عن عبوديته وقد جاء ذلك بنحو جد صريح في أحاديث عن أئمتنا عليهم السلام فعن صفوان بن يحيى قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول : كان جعفر بن محمد عليهما السلام يقول: لولا أنا نزداد لأنفدنا وعن ذريح المحاربي قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام : (لولا أنا نزداد لأنفدنا) .

ولعلهم عليهم السلام كانوا يردون توهماً خلاصته أن هذه العلوم التي تصدر عنهم عليهم السلام ترجع لهم استقلالاً فيجيبون لرد هذا الاشتباه بأنهم عليهم السلام لهم الارتباط المطلق والعبودية التامة لله تعالى وأنّ جميع ما لديهم منه تعالى وقولهم عليهم السلام (لولا يمدنا الله لنفد ما عندنا) أي لولا أنّ الله يعطينا ويغدق علينا بالعطاء لكنا لا شيء وهذه قاعدة عقلية مؤسسة عند كبار حكمائنا الذين يتقنون القواعد العقلية إذ يقولون إنّ وجود الكون بأكمله وجود رابط متعلق به تعالى لو قطع عنه المدد لعاد عدماً محضاً لا وجود له وليس هناك أحد من الملائكة أو الأنبياء والرسل ومن جميع مفردات الكون يستقل عنه تعالى وهو ما تفصح عنه الآية (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ) فهو مصدر الرزق بالاستقلال .

قد يتصور بعض الناس أنه يستغني عن الله ولكنه إذا تأمل وجد ذلك سراباً ففي عصرنا رغم أننا نعيش قمة التقدم ولكنه تعالى لو أوقف الأمطار لمدة سنة فإن الجدب سيعم الجميع

وسيذهب الاخضرار وتموت الأشجار ولن يستفيد الإنسان من الأرض مع أنها لا ينقصها إلا وابل المطر فما بالك لو تأثرت بعض الظواهر الكونية كحركتي المد والجزر . وعليه فإن العاقل يعي أن جميع الكون بيد الله تعالى قال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

قوله تعالى (بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)

اللَّجُّ لغة معظم الماءِ حيث لا يُدرَكُ قعرُه وهو بمعنى تمادى في الشيء معانداً أي أبى أن ينصرف عنه حتى وإن كان لا يفيده والآية تفصح عن أن الكفرة والعصاة كانت لهم دلائل تصرفهم عن طغيانهم وعن عبادتهم للأصنام ولكنهم مع ذلك تركوا ذلك وأبوا الانصراف عنه ويتضح المعنى من خلال حكمة وردة عن علي عليه السلام (من طرق الباب ولجّ وَلَج) أي أن من أَكْثَرَ طرق الباب في دعائه الله وألحّ فإنه تعالى يجيبه ويحقق مبتغاه . واللجّ هنا بمعنى الجهد في الحقيقة للوصول إلى المقصود ، وقد قال علماء اللغة إن المشركين كانت لهم صوارف كثيرة عن عبادة الأوثان ومع ذلك فهم يردون الأدلة ويصرفونها عن ظهورها عناداً ولجاجة . واللجّ

ممكن أن يستخدم في الخير ويمكن أن يكون في الشر وهو المراد في الآية (بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) .

أما العتو فهو الطغيان وقد فسّر بأنه الخروج الفاحش للفساد فالإنسان يمكن أن يطغى ولكنه لا يكون عاتٍ إلا إذا تجبر في طغيانه وتجاوز الحد فيه ، والكفار لكونهم انصرفوا عن عبودية الله إلى عبودية الأصنام فاصبحوا يدافعون عنها وبذلك صدق عليهم أنهم (لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) .

وأما النفور فمعناه واضح نقول نفر بمعنى خرج هرباً بنحو سريع فالخروج هربًا من شيء يشعر بوجود الخطر فيه ، وهؤلاء ينطبق عليهم المعنى فقد تركوا الله تعالى وتوجهوا إلى غيره هاربين منه تعالى في نفور أي كأنهم يحسون بالخطر من قبل الله بينما لو كانوا هربوا إليه لأمنوا قال تعالى (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) .

والآية تشكل برهاناً قاطعاً وحجة ساطعة على أنه إذا كان الرزق بيده تعالى ، فإن على الإنسان أن يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه .

قوله تعالى (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

المعنى أن من يسير في اتجاه مستقيم وهو يرى الطريق واضحاً لا غطش فيه ولا إبهام ، كمن يمشي في طريق متعرج فيه انخفاض وارتفاع وهبوط ونزول ومع ذلك لا يرى الطريق لأنه قد نكّس رأسه إلى الأرض ، هل يستويان في الوصول إلى المطلوب أو في الوصول إلى الخير والحق ؟ فأي الشخصين يصل إلى الهدى والرشاد ؟ أهو الذي يمشي سويًّا على صراط مستقيم أو الذي يمشي مكبًّا على وجهه في أرض غير مستوية بل فيها مرتفعات ومنخفضات والتواء واعوجاج ، أيهما سيصل إلى مطلوبه بسلام .

من الواضح أن الذي يمشي سويًّا على صراط مستقيم هو الذي سيصل بشكل سريع لأنّ الرؤية واضحة لديه وقد نقل هذا التفسير عن ابن عباس وأن معنى الآية المباركة هو مثل ضربه الله عز وجل للكافر المتعدي على حدود الله وشبهه بمن يمشي مكبًّا على وجهه .

إلا يقال إنّ أقرب الطرق هو المستقيم فهو الذي يوصل إلى المطلوب بشكل سريع والآية المباركة فيها برهان أنّ المؤمن لكونه يسير في طريق الهدى والرشاد فإنه سيصل إلى مطلوبه بل وفيها أيضاً عمق في الاستدلال بأنّ المؤمن لا يمكن أن يأخذ بشيء إلا من

خلال النظر ومن خلال الدليل ، فهو أولاً ينظر إلى الحق فيتعرف على جميع الحيثيات المرتبطة به وبذلك يذعن له لوضوحه عند تجليه ولعلنا نستكشف ذلك في أقوال علمائنا خصوصاً في باب العقائد عندما يؤكدون على أنه لا يجوز للإنسان أن يقلد في عقائده بل يجب عليه أن يصل إلى اليقين أو الاطمئنان بما يعتقد به ويريدون بذلك أن كل إنسان مكلف بحسب ما يتاح له من قدرات فقد يكون عالماً كبيراً وعليه حينئذ أن يسبر الأدلة واحداً تلو الآخر إلى أن يصل إلى الحق الصراح وقد يكون شخصاً عادياً يكتفي بما يحقق له الاطمئنان .

والخلاصة إن على كل واحد أن يسير على وفق الإمكانات المتاحة لديه . قال الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان : في الآية دلالة على وجوب النظر في الدين لأنه تعالى ضرب المثل بالنظر فيما يسلكه حتى خلص هذا الناظر من ناحية نظره إلى رؤية طريقين أحدهما يؤدي إلى ساحل النجاة وشاطئ الأمان والآخر يؤدي إلى الهلاك لوجود خلل إلى الطريق ولهذا ذم الله التارك للنظر الذي يمشي مكبًّا على وجهه دون أن يعرف ماذا سيصل إليه في مشيه . والمهم أن على الإنسان خصوصاً في المجال العقدي أن يتفحص الأدلة بالمقدار الذي يتاح إليه ولا يسير على وفق التقليد

المذموم قال الله تعالى (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) الله يذم هذا النمط من الاستدلال ويقول في آية أخرى : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ....) .

قوله تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)

يبين الله تعالى أن ما يتمتع به الإنسان من النعم العظيمة ومن أهمها نعمتا التمتع بالحواس والعقل والفؤاد. فالذائقة واللامسة والشامة والباصرة والسامعة ، هذه الحواس الخمس كلها عظيمة غير أن أعظمها السمع والبصر وقد يطلق السمع والبصر ويراد بهما في بعض التعبيرات شمولهما لكل تلك الحواس ولذلك قال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ) أي أوجدكم لا من شيئ ، فليس هناك مادة أوجدنا منها والتراب الذي أوجدنا منه مخلوق له تعالى ، أي إنه أوجدنا إبتداعاً.

وبعد أن أوجدنا إبداعاً ورزقنا نعماً عظيمة نستفيد الكثير منها وجعل أهمها الحواس كما أسلفنا والفؤاد والعقل ولذا قال العلماء (من فقد حسًّا فقد علماً) أي أن الذي يفقد إحدى الحواس سوف يفقد علماً لفقدانه تلك الحاسة ففاقد الذائقة لا يميز

التذوق بين الطعوم التي يتناولها ويفقد العلم بذلك ومن لايسمع يصبح أصمًّا ويفقد العلم بالمسموعات ومن لا يبصر يفقد العلم بالمبصرات إذن من أهم النعم الحواس والتي بها يستطيع الإنسان أن يتكامل في سلم المعرفة مرتقياً إلى درجات عالية .

وأما ما يتعلق بالعقل والفؤاد فإن الله تعالى وهبه للإنسان كي يكون مديراً ومدبراً لحواسه وجوارحه ، وقوله تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ) إبانة لوجود الارتباط بين الحواس والعقل ، وإذا كان الله تعالى أوجدنا وأعطانا هذه الحواس فيجب علينا أن نقوم بشكر هذه النعم الثلاث التي هي نعمة الإيجاد لا من شيئ ، ونعمة الحواس ، ونعمة الأفئدة وهي القلب ، وما أدراك ما القلب ، إنه مركز العقل لدى الإنسان ويتصرف به ليصل إلى كماله ولهذا نجد الفارق بين الإنسان والحيوان كبيراً ، فالحيوان لا يتقدم في حياته بخلاف الإنسان فإنه يتقدم أشواطاً إلى الأمام ، فالنحل ومنذ أن خلق الله البشرية وهو على هذه الكيفية يبني البيوت السداسية ويستفيد منها ثم يصنع العسل والنمل كذلك يقوم بوظائف متعددة والطيور والحيوانات لها أدوار جد هامة غير أنها غير قابلة للتطور .

أما الإنسان ففي حركة دؤوبة نحو الارتقاء بواسطة الأفئدة وهي العقول ، وما إدراك ما العقول التي تجمع تجارب الإنسانية جمعاء وتستفيد منها متقدمة بها إلى الأمام بتقدم مضطرد .

إن أهم ما يحكم به العقل والعقلاء بإزاء هذه النعم وجوب شكر المنعم وهو قانون عقلائي والبعض يراه أنه عقلي وعقلائي وعلى كل حتى إذا لم يكن عقلياً فهو عقلائيٌ ، أي أن أي شخص من العقلاء يحكم بشكر من بذل المعروف وأحسن إلى غيره ويذم من أساء إليه ويرى أن فعله قبيح . إن الجحود وكفران النعمة قبيحان بنظر العقل والعقلاء ، وبناء على ذلك فإننا إذا علمنا بأن الله أوجدنا لا من شي قال تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) ثم أمتن علينا بأن أعطانا (السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ) ثم أشار تعالى إلى قلة شكرنا قال تعالى (قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) وقال تعالى أيضاً (إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) .

تتمة قال العلماء إنّ المعارف التي يدركها الإنسان على قسمين معارف جزئية ومعارف كلية ، فالجزئية هي المعارف التي تأتى عن طريق الحواس الخمس ، والكلية هي المعارف التي تأتي عبر العقل ، والإنسان يستفيد من العقل من خلال ترتيب مجموع المعارف

والمعلومات التي لديه والانتقال منها لإدراك معلومات مجهولة من خلال ترتيب الأقيسة ليصل عبرها إلى النتائج .

ويبين الله تعالى أنّ جميع ما لدى الإنسان من معارف هو من الله لأنّ المعلومات الجزئية تأتى عبر الحواس وهو تعالى الذي (جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ) ، أو أن تكون عبر العقل والإدراك وهي حينئذ آتية من (الأفْئِدَةَ) وبذلك استحق الباري تعالى الشكر وهو استخدام النعمة فيما يريده المنعم .

إن الشكر تارة يكون بالثناء باللسان وأخرى بالعمل وهو الأهم ، إن من قدم شيئاً جميلاً فأثني عليه فقد مُدح وحُمد وهو شكر لساني باللفظ أما إذا قدمت له عملاً بإزاء العمل الذي قام به إليك فذلك شكر عملي .

أما فيما يتعلق بالخالق تعالى فإن الإنسان لن يستطيع أن يقدم لله تعالى شيئاً وإنما يعمل الخير لنفسه وقد جاء عن الأئمة عليهم السلام عندما سئلوا : ماذا يستفيد الإنسان من عبادته لله ؟ أجابوا بأن الله تعالى لا يستفيد من عبادتنا شيئاً لأنه الغني المطلق ونحن الفقراء بنحو مطلق ونحن الذين نستفيد ففي الرواية القدسية (إنما خلقت الخلق ليربحوا علي ، ولم أخلقهم لأربح عليهم) [1] أي أننا نحن الذين نستفيد من عبادتنا لله ونتكامل بها في سلم الرقي.

1 جامع السعادات - محمد مهدي النراقي - ج ١ - الصفحة ٢٢٨

غير أن الإنسان قليل الشكر قال (قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) إذ لا يراد بالشكر هنا هو الشكر اللساني وإنما يراد به الشكر العملي بصرف نعم الله في طاعته والسير على سراطه المستقيم ، أما الشكر اللساني فقد لا يكون قليلاً ، ولعل من أعظم أنماط الشكر صرف نعمتي السمع والبصر فيما يرضي الله إذ أن الاستفادة منهما في غير طاعة الله نوع من الجحود والكفران وعليه فإن استعمال القلب والقوة العقلية وجميع المعارف والقدرات فيما يريده الله تعالى هو الشكر والاستفادة منها في غير ذلك قد يكون مستلزماً للجحود والكفران ، وقد جاء شخص إلى الإمام الحسين بن علي عليهما السلام وقال: (أنا رجل عاص ولا أصبر عن المعصية فعظني بموعظة فقال عليه السلام: افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت :

1. فأول ذلك: لا تأكل رزق الله وأذنب ما شئت .
2. والثاني: اخرج من ولاية الله وأذنب ما شئت .
3. والثالث: اطلب موضعاً لا يراك الله وأذنب ما شئت .
4. والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت .

5 والخامس: (إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل في النار وأذنب ما شئت) [1] . فهل يستطيع أحد أن يأكل من غير رزق الله تعالى وجميع النعم منه قال تعالى (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ) أو يكون في موضع لا يراه الله فيه والوجود كله له قال تعالى (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) وهو معنا أينما كنا قال تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) .

ولعل في قصة الحطاب (متّى) والد نبي الله يونس عليه السلام إيضاح لمعنى الشكر العملي ، روي عن علي بن الحكم ، عمن رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال : إن داود النبي عليه السلام قال : يا رب أخبرني بقريني في الجنة ونظيري في منازلي ، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : إن ذلك متّى أبا يونس ، قال : فاستأذن الله في زيارته فأذن له ، فخرج هو وسليمان ابنه عليهما السلام حتى أتيا موضعه ، فإذا هما ببيت من سعف ، فقيل لهما: هو في السوق ، فسألا عنه فقيل لهما: اطلباه في الحطابين ، فسألا عنه فقال لهما جماعة من الناس: نحن ننتظره ، الآن يجئ ، فجلسا ينتظرانه إذا أقبل وعلى رأسه وقر من حطب ، فقام إليه الناس فألقى عنه الحطب وحمد الله وقال: من يشتري طيباً بطيب؟ فساومه واحد وزاده آخر حتى باعه من بعضهم ، قال: فسلما عليه ، فقال: انطلقا بنا إلى المنزل ، واشترى طعاماً بما كان

1 بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٥ - الصفحة ١٢٦

معه ثم طحنه وعجنه في نقير له ، ثم أجج ناراً وأوقدها ، ثم جعل العجين في تلك النار وجلس معهما يتحدث ، ثم قام وقد نضجت خبيزته ، فوضعها في النقير وفلقها وذر عليها ملحاً ، ووضع إلى جنبه مطهرة ملأى ماء ، وجلس على ركبتيه وأخذ لقمة فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله ، فلما ازدردها قال: الحمد لله ، ثم فعل ذلك بأخرى وأخرى ، ثم أخذ الماء فشرب منه فذكر اسم الله ، فلما وضعه قال: الحمد لله ، يا رب من ذا الذي أنعمت عليه وأوليته مثل ما أوليتني؟ قد صححت بصري وسمعي وبدني وقويتني حتى ذهبت إلى شجر لم أغرسه ولم أهتم لحفظه جعلته لي رزقا ، وسقت إلي من اشتراه مني فاشتريت بثمنه طعاماً لم أزرعه ، وسخرت لي النار فأنضجته ، و جعلتني آكله بشهوة أقوى به على طاعتك فلك الحمد ، قال: ثم بكى ، قال داود: يا بني قم فانصرف بنا فإني لم أر عبداً قط أشكر لله من هذا » [1]. وعليه يتضح لنا لماذا كان (متّى) رفيقاً لداوود عليه السلام ، وقد أراد عليه السلام أن يبين لابنه سليمان مرتبة الشكر ، وكيف يكون الإنسان الشاكر ، ولهذا اصطحب ابنه سليمان عليه السلام معه ، لكي يعرفه منزلة الشاكر الذاكر لله تعالى ، وقد أدرك سليمان عليه السلام ذلك عندما بدأ متّى يثني على الله تعالى

1 بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٤ - الصفحة ٤٠٢

بذلك الثناء الجميل ويظهر عجزه وعوزه ، وأن تلكم النعم سخرت له من الله تعالى .

قوله تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وإليه تُحْشَرُونَ)

الذرأ هو الإيجاد المرتبط بالأرض ، ومعنى ذرأنا أوجدنا عالماً من العوالم في هذه الأرض ولعل في ذلك إشارة إلى أن كمالنا يتوقف على إيجادنا في هذا الكوكب وعلى هذه الأرض ولا يراد بالأرض هنا التربة بل العالم السفلي المعبر عنه بالدنيا قال السيد الطباطبائي يرحمه الله : الذرأ هو الخلق والمراد بذرأهم في الأرض خلق الخلق متعلقين بالأرض فلا يتم للخلق كمالهم إلا بالأعمال المتعلقة بالمادة الأرضية [1] . أي أن كل عمل هنا يتعلق بالأرض ، ويجذبنا إليها لجماله في نظرنا قال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) غير أنه سيتلاشى منقضياً قال تعالى (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) ولهذا لا يلام الإنسان على حبه للدنيا لأنه فُطر على ذلك كما جاء عن علي عليه السلام (النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَلاَ يُلاَمُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ) [2] إذن أوجدنا الله على هذه الأرض وجعل تكاملنا يرتبط بهذا العالم ثم

1 تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٩ - الصفحة ٣٦٤
2 بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٥ - الصفحة ١٤

زيّنه لنا وجعل وجودنا يتوق لكل مظهر من مظاهر هذا العالم الدنيوي ، أي لدينا ارتباط وثيق به قال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وإليه تُحْشَرُون) أي أنه تعالى جعلكم في الأرض وجعل تعلقكم بها لتصلوا بالخلق والإيجاد والتعلق بعالم المادة وبعالم النشأة المادية إلى عالم الحشر والقيامة وعالم اللامادة بعد حين ، وقد أشار علي عليه السلام إلى هذا في قوله (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ) أي أن على الإنسان أن ينظر إلى الدنيا نظرة آلية و يجعلها جسرًا للآخرة وهي النظرة الصحيحة التي يريدها منَّا القرآن الكريم والأئمة والأنبياء والرسل عليهم السلام .

قوله تعالى (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

إن مسألة المعاد من المسائل الهامة التي ركز عليها القرآن الكريم في أكثر من آية لكون مصير الإنسان يتقرر في عالم الآخرة ولذا نجد أنّ آيات الأحكام وإن اختلف في تعدادها بين خمسمائة آية كحد أقل أو ألفين وخمسمائة آية أو أن كل القران الكريم يرتبط بالاحكام الشرعية بمعنى وجود صلة بين الحكم الفقهي والحكم الأخلاقي والأمر العقدي إلا أن الحيز الذي شغله عالم الاخرة هو

أعظم حيز فالآيات التي تتحدث عن المعاد وعن الآخرة أكثر من ألف وسبعمائة آية كما ذكر ذلك الشهيد المطهري في بعض كتبه أي أن لعالم الآخرة أهمية قصوى وفائقة بالنسبة للإنسانية جمعاء فمصير الإنسان يرتبط بعالم الآخرة ولهذا أولى القرآن عالم الآخرة العناية الفائقة لكن الإنسان لايدرك ذلك لأمرين :

الأول لكونه عالم متأخر وهو يستعجل ويريد قطف الثمار بشكل سريع . ولهذا يعبر بعضهم بقوله (عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة) إلا أنه تفكير محدود بوقت وزمان معينين اذ أن الحياة الدنيا ستنتهي لامحالة .

الثاني أن المعاد غيب والإنسان يتعامل مع الحس والمحسوسات .

وهما أمران لا ينسجمان مع طبع الإنسان إذن مسالة التسرع في قطف الثمار تبعد الإنسان عن التصديق بالمعاد إذ يريد أن يحصل على جزائه في هذه الدنيا بينما جزاء العمل الصالح في عالم الآخرة فإنْ عمل سوءاً قيل له ستجزاه في الآخرة وكذلك إن عمل خيراً قال تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

إن مسألة المعاد مسألة ذات أهمية ، والأنبياء بعثوا مبشرين ومنذرين ، مبشرين بجزاء العمل الصالح ومنذرين بالعاقبة

الوخيمة للعمل السيء ومبينين أن ذلك سيحصل في عالم الآخرة ودورهم عليهم السلام كالنصيحة التي يقدمها الصديق لصديقه بقوله : إن بذلت جهدًا وصبرت ستجد نتائج طيبة ، و سيتحقق لك ما تصبو إليه فيرد عليه صديقه غير قابل لنصيحته بقوله : ما بعد الصبر إلا القبر، إذ أن القليل من الناس هم الذين يصلون إلى نتائج كبيرة وعظيمة لكونهم يمتلكون العزائم ويصبرون وبالتالي يقطفون الثمار الكبيرة .

إيضاح : وليس معنى ما تقدم أن الأنبياء لم يحذروا من نتائج الأعمال السيئة في الحياة الدنيا ، فقد ذكر الانبياء الرسل والائمة عليهم السلام كثيراً من الآثار الوضعية للأعمال السيئة في الحياة الدنيا كقوله عليه السلام إن قطيعة الرحم تنقص العمر وأن سوء الخلق يقلل الرزق وهلم جراً من الاثار السيئة والعواقب الوخيمة للأعمال المشينة في الحياة الدنيا . غير أن عناد الإنسان واستكباره يصدانه عن الهدى ويدعوانه إلى إنكار المعاد بل والتذرع بحجج وبراهين واهية قال تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) وبعض من الناس ينكر الآخرة لطول الأمد قال تعالى (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) وهو رد على الأنبياء في صورة استهزاء بل إنهم يتذرعون بذكر ما جاء به

الأنبياء والرسل السابقون فيقولون لقد جاء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وفئام من الأنبياء وأخبر من قبلهم آدم عليه السلام ولم يتحقق شيء مما أخبروا به منكرين للقيامة ومتسائلين عن وقتها قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ) متناسين أن علم الساعة مجهول لا يعلم به إلا الله كما أخبر بذلك الأنبياء والرسل قال تعالى (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) وقال تعالى (لا تَأْتِيكُمْ إلا بَغْتَةً) لحكمة ومصالح يعلم بهما الحق تعالى لعل منها إبعاد الإنسان عن التمرد على الله تعالى والخروج عن طاعته إذ لو قيل له أن الساعة تتحقق بعد مليون سنة لبعد عن التقوى ومما يرتبط بالساعة إخفاء أجل الإنسان كي يعد نفسه للقاء الله تعالى وعالم الاخرة ولا يبعد عن الصراط المستقيم فيعيش بين الخوف والرجاء .

إيضاح : ومما ينبغي للمؤمن أن يلتفت إليه أن بعض الأمور العقدية تربط بوقت غير محدد لا يعلم به إلا الله لوجود مصالح وحكم خفية كأمر الإمام المهدي عليه السلام ، فقد جاء في الروايات أن أمره كالساعة وأن الله تعالى يصلح أمره بين يوم وليلة وما ذلك إلا من أجل إيضاح عدم استبعاد الأمور التي ترتبط بعالم الغيب والاتكال على الأمور الحسية فحسب لكونها مهما أُحكم أمرها

تتغير بنحو سريع فهناك دول عظمى ضعفت وتفككت أسرع من المتوقع كالاتحاد السوفيتي فقد سقط في سنوات محدودة وزالت كل مظاهر تلك الكبرياء والعظمة التي يتمتع بها .

إن الله تعالى يريد من الإنسان أن يتعلق به وأن يراه مالكاً لأمره عالماً بمحدوديته وقلة علمه قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) وقال تعالى (وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً) . إن مايوجب التصديق بما أخبر به الأنبياء والرسل هو أن إخبارهم اقترن بدلائل وبراهين واضحة توجب التصديق بما أخبروا به بالإضافة إلى طهارتهم ونزاهتهم واتصافهم بصفات دللت على حقانية أقوالهم وصدق أخبارهم فهم أشجع الناس وأعلم الناس وأصدق الناس ولا يريدون إلا الخير للإنسانية جمعاء وهمهم الوحيد هو إسعاد الناس لأنّ الله استخلصهم لنفسه واصطفاهم لعبوديته .

فلا يريدون إلا الخير للآخرين ، فليس لديهم مصالح ذاتية فيريدون الخير لأنفسهم فقط وإنما يريدون السير في صراط الحق المستقيم لأنفسهم ولغيرهم فهم يبشرون وينذرون لئلا يكون للناس على الله حجة ، ويعطون الجواب المنطقي ولا يظهرون أنفسهم مستعلين على الناس ويظهرون أن الأشياء بأيديهم فحسب

بل يفصحون دائماً وأبداً أن الأمر كله لله تعالى غير أن الناس لا يستوعبون الحقائق ويريدون أن تكون بعض الحقائق الغيبية حسية كما فعل بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام قال تعالى (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) وقد يطلبون أموراً بعيدة المنال ولا ربط لها بجانب الهداية قال تعالى (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلا بَشَرًا رَّسُولاً) إنها مطالب عبثية فالإيمان لا ربط له بما طلبوه ، نعم إن الأنبياء أعطاهم الله ولاية تكوينية ولكنهم يسيرون على وفق ما يريده الحق تعالى ويريدون من الخلق أن يؤمنوا ويعملوا صالحاً اختياراً وليس بالقسر والإكراه ولو كان الأمر كذلك لفعله الحق تعالى فهو الذي له الأمر كله .

إن الأنبياء والرسل والأوصياء بالرغم من قدراتهم الكبيرة والهائلة التي تحدث عنها الله تعالى قال تعالى (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) إلا أنهم لا يستجيبون للنزوات والأهواء ويعلمون أنهم منذرون قال تعالى (قُلْ

إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) أي أبين لكم الحقائق والقرار يرجع إليكم ، والأمور بأجمعها باختياركم إن تعملوا للآخرة فإن الجنة مصيركم وإن تعملوا السوء فإن النار مثواكم .

قوله تعالى(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ).

يقال ازدلف إلى فلان بمعنى اقترب ، فالزلفى هي القرب ، أي يقال للكفرة الذين جحدوا يوم القيامة عندما رأوا آثاره وعلموا بقربه وظهرت عليهم آثاره (هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ) .

إيضاح : متى يشاهد الإنسان القيامة ؟

قبل الإجابة على السؤال هناك قيامتان :

الأولى قيامة صغرى وهي دليل على القيامة الكبرى عند الموت وقد ورد في الروايات أنه إذا مات الإنسان قامت قيامته ويراد بذلك قيامته الصغرى . وفيها الحساب الفردي في عالم البرزخ .

الثانية قيامة كبرى وفيها الحساب لجميع البشر على صعيد واحد وهو مشهد يوم عظيم وهو يوم الفصل ، والشافع في ذلك اليوم هو محمد ﷺ ولولا شفاعته لما نجا كثير من الخلق .

والقائل هنا (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ) إما أن يكون هو الله أو الملائكة الذين

وكلوا بمصير الخلق في عالم الآخرة ، فالنار عليها ملائكة والجنة كذلك بل كل شيء يدبر بالملائكة بإذن الله قال تعالى (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) فهم يدبرون جميع الأشياء بإذن الله تعالى . أما معنى (سِيئَتْ) فقيل بمعنى استاءت من السوء فإذا استاء الإنسان ظهر على وجهه آثار الحزن والغم والألم واسودّ وجهه ، أي أن الإنسان إذا رأى المصير المؤلم يستاء .

قوله تعالى (هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ)

تدّعون لها قراءتان :

الأولى تدعون (تستعجلون) فهم يستعجلون القيامة ، فيقولون إن كانت حقاً فلتجيئ فورًا ويأتيهم الجواب نعم لقد جاءتكم بمعنى ظهرت آثارها لكم إما بالموت وإما بإخراجهم من أجداثهم إلى يوم القيامة حيث يرون الملك لله تعالى قال تعالى (لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) فيأتي النداء (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) فإذن (وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ) أي تستعجلون .

الثانية (تدّعون) بمعنى تختصمون فيه وتختلفون هل أنه سوف يتحقق ويحاسب الخلائق فيجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإسائته أم لا ؟ ! . وقيل إن كلا المعنيين (تدّعون وتدْعون) بمعنى

واحد وهو ماتســـــتعجلون قد لاقاكم واقترب وازدلف إليكم فأنتم الآن بين يدي الساعة ويحاسب كل امرئ منكم بما عمل .

ولعل معنى (تختصــمون) يتضــمن الإشــارة إلى أن المؤمن مع الكافر ، والحق مع الباطل يعيشـــان في صـــراع منذ بدء الخليقة ليُمحّص المؤمن كي لا يكون إيمانه ادعاءً دون مرور بامتحان وابتلاء لأنّ مسألة الابتلاء غاية في الأهمية تشمل كل البشرية من أعظم الخلق إلى سائر الناس قال تعالى (أَلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ) وقد بين الحق تعالى أن قانون الابتلاء يجري على أنبيائه كما جرى على سائر خلقه قال تعالى (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) وإذا كان الأنبياء بمكان مكين في القرب من الله تعالى ومع ذلك فإنّ ســـنة الابتلاء جارية عليهم فجريانها على سائر الخلق أولى .

إن بعض الناس يكذب بالقيامة وعالم الآخرة ويتصـــــور أن الأنبياء والرسـل اسـتغلوا خوف الناس فقالوا بوجود عالم الآخرة ووجود الحســاب في القيامة ، أما حقيقة **الأمر** فليس هناك عالم غير العالم الذي نعيشــه قال تعالى حاك عنهم (وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) إذن (تدَّعون) إما بمعنى يجادل بعضــكم بعضــاً ، أو بمعنى تجادلون المؤمنين وهما معنيان لأحد

القولين وعلى كلّ منهما فإن المعنى هو أنهم يختصـــمون في عالم الآخرة .

قوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

النبي ﷺ بعد ما صدع بدعوته وجاء بالرسالة الخاتمة وبهذا الدين العظيم الذي هو أكمل الأديان وسـيظهر على الدين كله قال تعالى (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْـرِكُونَ) جحد كثير من الكفرة نبوته ﷺ وربطوا الرسالة الإسلامية بشخصه ﷺ وقالوا عندما يموت سـوف تنتهي الرسـالة ولكنّ الله تعالى أبان بأنّ الدين الإسـلامي سـوف يظهر على الأديان حتى وإن مات النبي ﷺ لأنّ للدين حفظة وهم الأئمة عليهم السلام ، يحفظونه بأمر الله تعالى وهم الذين يبلغون الكتاب ويفسـرون آياته ويفصـحون عن الأحكام الشـرعية ولهذا قال المصـطفى ﷺ (إني تاركم فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسـكتم بهما لن تضـلوا بعدي أبدًا) وقد أفصح الذكر الحكيم عما كان يدور بينهم قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ شَـاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) أي أنهم يتصـورون أنّ القرآن الكريم إنما هو مجموعة من الأبيات الشـعرية وبالتالي فإذا مات صـاحبه

سينتهي أمره كما انتهى أمر الشعراء الكبار ، وقد جاءهم الرد بأن قل لهم يا محمد (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وهو تحذير لهم من عذاب الله تعالى الدنيوي والأخروي بأنه لا أحد يستطيع أن يجير الكافرين من عذابه تعالى وقد جاءت الأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام (يا من لا ملجأ منه إلا إليه) أي أنه تعالى لا يجير منه أحد بل إن العقائد الحقة تؤكد على إرجاع الأمر إليه تعالى حتى فيما يتعلق بوجود من أخلص له وانصهر في بوتقة طاعته ولهذا المعنى بينت الآية المباركة أن الأمر لله وحده (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وقال تعالى (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) وقد جاء هذا المعنى في الأدعية والروايات والزيارات ففي الزيارة الجامعة لأئمة المؤمنين (أنّى وَلَكُمْ القُلُوبُ الَّتِي تَوَلّى اللهُ رِياضَتَها بِالخَوْفِ وَالرّجاءِ وَجَعَلَها أَوْعِيَةً لِلشُّكْرِ وَالثّناءِ وَآمَنَها مِنْ عَوارِضِ الغَفْلَةِ) أي أن قلب المعصوم عليه السلام تولى الله رياضته بالخوف والرجاء وجعله وعاء لشكره والثناء عليه وهم عليهم السلام يعلمون الناس الخوف من الله خصوصاً بالدعاء فهناك كثير من الادعية تغرس الخشية من الله والخوف منه وحبه وذكر عالم الآخرة .

جاء في دعاء أبي حمزة الثمالي (اَبْكي لِظُلْمَةِ قَبْري، اَبْكي لِضيقِ لَحَدي، اَبْكي لِسُؤالِ مُنْكَر وَنَكير اِيّايَ، اَبْكي لِخُرُوجي مِنْ قَبْري عُرْياناً ذَليلاً حامِلاً ثِقْلي عَلى ظَهْري، اَنْظُرُ مَرّةً عَنْ يَميني وَاُخْرى عَنْ شِمالي، اِذِ الْخَلائِقِ في شَأن غَيْرِ شَأني) ويسترسل الإمام عليه السلام في الدعاء فيبين كيف يواجه الإنسان مصيره الأخروي وأن عليه أن يلتفت إلى ذلك قال تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) فلا أحد يستطيع أن يدفع الموت عن نفسه ولا أحد يعرف كم سيعيش في الحياة الدنيا ، ويعلم المؤمن ذلك بالحساب الدقيق قال تعالى (وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ولهذا قال بعض العلماء إن الأطول عمراً هو الوليد ، فالإنسان عندما يولد هو أطول عمرًا ، وبمرور الوقت ينقص عمره ولا شيء لدى الإنسان ينجيه من تصرّم أجله وانقضاء أمده وموته ، وقد يزول جميع ما يمتلكه الإنسان في طرفة عين فيتبدل حاله من الصحة إلى السقم ومن العافية إلى المرض و من السرور إلى الغم . ولهذا حري به أن يربط قلبه بالله ويتذكر عالم الآخرة وهو ما كان عليه أولياء الله قال تعالى (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الآيْدِي وَالآبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) أي أنهم يلهجون

بعالم الآخرة ويذكرون أنفسهم دائماً وأبداً بها إلا أن ما يخفف العبئ إنهم يعلمون بكرم الله ورحمته وعفوه ومغفرته .

قوله تعالى (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

إن التذكير برحمة الله هو البلسم الشافي للمؤمنين ورد في دعاء كميل بن زياد (اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء) ، فهي تسع كل الخلائق من الذرة إلى المجرة ، فكل شيء مشمول لرحمته تعالى (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) أي أن الإنسان عليه أن يؤمن بالله وأن يتوكل عليه والتوكل من أعظم الأمور التي يحتاجها الإنسان في حياته ، ويراد به الأخذ بالأسباب وإيكال النتائج إلى الله تعالى ، بمعنى أن على المؤمن أن يعمل جاهداً لكنه لا يعتمد على الأسباب الظاهرية فقط ، بل يتوكل على الله ويأخذ بالأسباب فيعمل كادحاً وجادًّا ويستثمر كل أوقاته في الخير والنفع الذي يعود عليه وعلى مجتمعه ولا ينظر إلى أن عمله قد لا يصل إلى نتيجة في حياته لأن الله تعالى هو العالم بوقت ظهور النتائج فقد لا تبدو إلا بعد مدة طويلة ولهذا لا يصاب المؤمن بالقنوط لأنه يعلم أنّ وراء هذه الأسباب الله تعالى وهو سبب كل سبب ، ففي الدعاء (اللهم يا سبب من لا سبب

له ، يا سبب كل ذي سبب ، يا مسبب الأسباب من غير سبب)[1] إذا من أهم الأمور بعد الأخذ بالأسباب التوكل على الله (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) بمعنى أنه يكفيه قال تعالى(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ).

قوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

للماء أهميته الكبيره فهو أساس الحياة قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) وهو بهجتها وجمالها ، فنظافة الإنسان وصحته وتقدمه وسهولة ويسر حياته كل ذلك يرتبط بالماء لذلك يذكر الحق تعالى بأنه هو المنعم على الإنسان بإنزاله للماء من السماء قال تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ) ويفصح أيضاً أن جميع أسباب الحياة بيده فإذا شاء جعل الماء غائراً لا يستطيع الإنسان أن يصل إليه قال تعالى في آية أخرى (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) ، ومن خلال إلفات نظر الإنسان إلى أهمية الماء في وجوده وعلى حياته يدرك نعم الله تعالى عليه وأنه لا أحد غيره يستطيع أن يحقق له ما يبتغيه .

1 المجتبى من دعاء المجتبى - السيد ابن طاووس - الصفحة ١١١

والمعين هو الجاري وفي الآية تذكير بأن الماء المعين هو ما يعطي الإنسان لذة الحياة والاحساس بجمالها وذلك يتحقق بجريان الماء . وفيها أيضاً وجوه ومعان من التأويل ذكرت في الروايات منها : أن الماء يراد به العلم ولا يخفى ما للعلم من دور هام في إحياء النفوس كإحياء الأرض بالماء بعد موتها ، ومنها أن الماء المعين هو الإمام المهدي عليه السلام وذلك لما يترتب على وجوده المبارك من عدالة ورفاهية واستقرار فهو عليه السلام بمثابة الماء من الناحية المعنوية فقد ورد في الرواية عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: (قُلت: ما تأويل قول الله عز وجل (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ)؟ فقال: إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون) [1] وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام في قوله تعالى (فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ) قال عليه السلام (يعني بعلم الإمام) [2] .

وهناك روايات كثيرة ورت في تأويل بعض الآيات كما في قوله تعالى (وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) بأن تأويلها أن لا ييأس المذنبون من رحمة الله وإن جدب حياتهم المعنوية لا يعني أن الرحمة الإلهية لا تشملهم فإذا تابوا

1 غيبة الطوسي: 110 و 111. والآية في سورة الملك.30 :
2 تفسير القمي: 690. والآية في سورة الملك.30 :

ورجعوا إلى الله نزل عليهم معين الرحمة وشملهم اللطف الإلهي ونبت الإيمان في قلوبهم .

وورد في تأويل قوله تعالى (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً) في تفسير علي بن إبراهيم القمي (أنزل الحق من السماء فاحتملته القلوب بأهوائها ، ذو اليقين على قدر يقينه ، وذو الشك على قدر شكّه ، فاحتمل الهوى باطلاً كثيراً وجفاءً ، فالماء هو الحق ، والأودية هي القلوب ، والسيل هو الهواء ، والزبد هو الباطل) وهو من التفسير بالجري كما يسميه السيد الطباطبائي بمعنى أنه أحد المعاني التأويلية للآية إذ أن من الواضح أن القران الكريم له معان متعددة هي بطون القران كما جاء في الروايات .